حالمون

آلان بللوتيير

ترجمة:
بشرى أبو قاسم

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

حَالمون

اسم الكتاب: حالمون «رواية»

alan blottère
rêveurs

تأليف: آلان بللوتيير

ترجمة: بشرى أبو قاسم

عدد الصفحات: 132

القياس: 14.5 × 21.5

1000/2013م -1434هـ



سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
facebook.darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة

القسم الفني - دار نينوى

آلان بللوتيير



ترجمة

بشرى أبو قاسم

آلان بللوتيير

- كاتبٌ فرنسي ولد عام 1954 في مدينة «نيلي - سور - سين - Neilly sur - seine» غرب باريس في فرنسا.

- كاتب روايات وحكايات سفر. يتنقل منذ عام 1985 للعيش بين فرنسا ومصر. تتصف أعماله بإلهام غريبٍ يستند فيه على التاريخ حيث يسبر أعماق الطفولة والمراهقة والعصور القديمة ويعرّج على بلدان بعيدة كمصر وجزر السند ليكتشف عوالم غريبة تنبعث فيها انفعالاته الغائبة.

- حازت روايته الأولى «سعد» الصادرة عن غاليمار 1980 على جائزة vocation لعام 1981. وهي تروي حكاية رسام في نهاية القرن التاسع عشر، أقام في «تادجورا» على ضفاف البحر الأحمر وحاول رسم سعد عبده الشاب.

- كما حاز عام 1995 على جائزة أدبية على قدرٍ من الأهمية هي جائزة Valery Larbaud عن رواية «السحر L'Enchantement» calmanlevy حيث يصطحبنا إلى ضفاف النيل في مصر، باستضافة أمير قديم يملي مذكراته على زنجيٍ ويودع بأمانته أسراره المعيبة.

- شهد عام 1988 ولادة رواية «سي أمون» Si — Amonn] Mercure de france[.

- التي تحملنا للغوص في أعماق مدينة سيرين وهي مستعمرة يونانية في ليبيا في القرن الرابع.

- حظيت رواية «ضريح تومي» الصادرة عن دار غاليمار عام 2009 بشهرةٍ واسعةٍ.

- نشر عدة أعمال ومقالات عن مصر بعد أن انتقل للعيش فيها.

وها هو يطل علينا بروايته الجديدة «حالمون» التي تنساب دون عوائق من عالم لآخر.

كما يعد أن يرى عمله «جزيرة الكنز في رمال ليبيا» النور قريباً.

مُقدِّمة

حـالمون.... ليـست روايـة عاديـة هـي دفـقٌ مـن أحاسـيس جياشـة ومـشاعر متأججـة تتـوارى خلـف كلمـاتٍ تأسـرنا بانـسيابيتها وترابطهـا الساحرين.

كلماتٌ تسكن في جملٍ منمقة تخدم الأحداث لكنها تبحرُ في فيضٍ من الذكريات يرتجف الفؤاد لصداها.

ترى هل تتحدث هذه الرواية عن الثورة الرقمية في شارع الدفاع في باريس بالتوازي مع الثورة المصرية؟ أم عن أعباء المراهقة وسياط اليتم؟ أم عن الواقع الرتيب الذي «يلتهم بمجراه الملل أحلى الذكريات»؟

إنها روايةٌ مؤثرة وجميلة، تقوم على أساسٍ شكلي شديد الوضوح، مشهدٌ مزدوج يعبر خلاله آلان بللوتيير من مشهدٍ لآخر بجملةٍ هي «المفصل» حيث يبدأ المشهد الأول في باريس وينتهي في القاهرة ويعود بالعكس.

أبطالنا مراهقان يتيمان: ناتان يعيش في باريس وجمعة في القاهرة. لا تـربط بينـهما أيـة علاقـة إلا أنهمـا متقاريـان «كأنـه صـورته في المـرآة» فكلاهما يسعى للهرب مـن عدوانيـة الواقـع، يغـرق ناتـان في ألعاب الفيـديو ولعبة «الوشاح» أو «الحلم الهندي» حيث يخنق نفسه حد الإغماء، أما جمعة فيحلم بـ «الرحيل» والسفر إلى فرنسا.

الأول ابن رجلٍ غني مدلل تحيطه مانون الجميلة بحبها أما الثاني فـابن شـوارع، لا يـتقن القـراءة ولا الكتابـة يعـيش مـن بيـع «علـب الكرتـون» ويشارك في الثورة المصرية المعاصرة ويحلم بفاطمة أخت عزيز.

يعلق ناتان نفسه بقضيب في خزانة الثياب ليخنق نفسه «بلعبة الوشاح» في حين يرى جمعة نفسه معلقاً عند «الرجال ذوي الزي الأسود» لتعذيبه.

يتحاشى ناتان تحرش صديقه الشاب - الوسيم - في حين يبحث جمعة عن جثمان صديقه المفقود بين شهداء مظاهرات ساحة التحرير.

لا تتصارع هاتين القصتين بل هما قدران مسكينان ومأساويان تحت الشمس.

يتقن الكاتب العزف على الكلمات ليشدنا بعذوبة اللحن.

غريبٌ هذا الابتهاج الذي غمره حين لمح رفات والده تحت دفقٍ من البتلات حمراء اللون عطرة، تتناثر في وميض ضياءٍ يفلت من عنف الصواعق فتهب نفحاتٌ من السعادة تملأ روحه، وتتجدد مع كل برقٍ يرافق الحركات اللاإرادية للميت، ينبض جفناه وترتعش خنصراه، مازال دافئاً تحت البتلات. أخيراً، تشق ابتسامةٌ غمار الضباب. ليكتشف أن والده يمثل أحد الأدوار الحمقاء التي يملك أسرارها والتي تليها دوماً ضحكةٌ مجنونةٌ تتخطى كل الحدود، حتى الآن حين يحيا والده من جديد بعد خداعٍ ماكرٍ.

ضحك أيضاً حين دفعته إحدى النسمات في شارعٍ تتلألأ في ليله النجوم بألقٍ على جدران البيوت الصغيرة. على الذراع الأيمن لحي رودان، تغفو المنازل في جنح الليل ثم تتبعثر بوميضٍ أخاذ على المنحدر حيث يمرر يده على الجدران.

أما على الذراع الأيسر، فتشرئب أنوار بولونيا ووزارة الدفاع من جهة مولاند لتلوح موحيةً بلوس انجلوس.

فجأة خفتت الأضواء وأبصر ناتان النهار مجدداً بسماءٍ زرقاء خريفية تشارف على المغيب مع ذات الضياء الذي أبصره قبل الحلم الهندي. ينحني أصدقاؤه فوق رأسه وهو يحوم في دوامةٍ من ضحكات نيكولا وراف والصور التي تلتقطها جوستين بجوالها. غاب وجه أليكس ومانون في انعكاس الضوء.

وهو مازال مستلقياً على عشب حديقة رودان الأخضر، طرحه الدوار أرضاً حين حاول النهوض فسقط كحجرٍ من علوٍ وقد أمتعه شعوره بفقدان

التوازن، وتلك السهولة التي يعبر من خلالها من هذا العالم إلى عالمٍ آخر بأقل من الثانية ليتلذذ بخيالاتٍ خارقة، لا تتجاوز بالحقيقة عشر دقائق.

حان الآن دور أليكس الذي دائماً ما يكتفي بطريقته اللطيفة دون اختناق، إذ يجلس القرفصاء ويبدأ بالدوران إلى أن تتسارع أنفاسه رويداً رويداً خلال ثلاثين ثانية فينهض لاهثاً، يحبس أنفاسه حتى يفقد وعيه لست ثوانٍ، التقطه نيكولا بين ذراعيه ومدده على العشب ريثما يعود للوعي.

تمنحنا هذه اللعبة شعوراً غريباً وعابراً بالوجود وتضفي عليه بعضاً من الصور الخفية، هذا كل شيء.

يفضل ناتان الاختناق، بل يستمتع بالاختناق حيث تسري في جسده نشوة العالم الآخر بانبهارٍ عجيب، يُرسل الدماغ حين يُحرم من دفق الدم أوامراً مشوشةً إلا أنها رائعة، فمتعة الحياة تبدو جليةً لحظة الموت نفسها.

هذا هو الحلم الصيني أو لعبة الوشاح والتي يمكن تطبيقها بحزامٍ أو باليدين أو بأي وسيلةٍ أخرى، إن لم يكن يرغب بالموت عليه إرخاء الشريان السباتي باللحظة نفسها التي يهجم فيها الموت. أحياناً يرافق هذه اللعبة تغوطٌ لاإرادي.

جوستين هي حبه الأول قبل مانون، كان عمره خمسة عشر عاماً حين وافته جوستين وفتحت زر بنطاله وهو في غمار مباراة (Zelda 3D) داعبته وقد أخذته الدهشة فما تبادر لذهنه أبداً أن تسحبه إلى سريرها الوردي، سرير فتاةٍ صغيرة. كم تغيرت منذ ذلك الوقت.

كانت تلهث كما لو أن رئتيها جهازَ تنفسٍ وهو بعدُ ما أقدم على شيء، فتساءل في سره ترى هل تقلّد ما تراه في أفلام البورنو أم أن الفتيات يلهثْن بوجود أو بغياب الكاميرا.

في تلك الأمسية، طرح هذا السؤال على والده، يدفعه الفضول ولكن أيضاً الخيلاء، فأجابه والده أن هذا أمرٌ يختلف من فتاةٍ لأخرى ثم فتح والده زجاجة شامبانيا نخب ابنه، رغم علمه أنه لا يحب الشامبانيا.

على كل حال، حان الآن دور جوستين وها هي تلهث مصدرةً ضجيجاً لأنفاسها كما لو أنها تمارس الحب لا الحلم الهندي. وعندما انتهت، غادروا جميعاً الحديقة العامة.

تستعرُ ألوان الخريف في أشعة الشمس لتنشر طقساً لطيفاً رائعاً، إلا أن ناتان دائماً ما يشعر بالضيق لا بل يكابد الألم حين يحط الرحال في الحياة الحقيقة بعد رحلة للعالم الآخر، فما زال أسير انفعالات حادة تكسر بشكل مفاجئ تفاهة هذا العالم ومللهِ، هو الشعور ذاته الذي يراوده لدى خروجه من السينما أو انتهائه من أحد ألعاب الفيديو.

وافق أليكس ومانون على الذهاب مع جوستين إلى منزلها فقد حصلت على قردٍ شمالي كهديةٍ لعيد ميلادها بالإضافة لشاي معطرٍ. أما نيكولا فقد اعتذر عن المجيء فعليه أن يقوم بواجب الرياضيات، كما أن راف تذرع بأخته التي يجب أن يحضرها من المدرسة.

أسوء ما يراود ناتان بعد ليلته الهندية، هو الذهاب لمنزل جوستين والإصغاء للروك طويلاً، فهذه الموسيقا التي يسمعها حد الصمم تعجل من عودته للواقع، كما أنه قد اشترى عبر الانترنت منذ شهرٍ تقريباً لعبة Suck It And See و يفضل لعبة Arcade fire.

لم يكن ناتان يدري إلى أين يذهب لئلا يفقد الذكرى التي يخلفها مرح الحلم خطر له أن يعود إلى جادة رودان، إلا أن هذه الفكرة العابثة سترمي كل مرحه في العدم بعد أن يرى حقيقة البيوت الصغيرة. تماهت الصور وفقدت إطارها، لابد أن عطر الورد أفقده وعيه.

خرج من الحديقة متجهاً نحو شارع الدفاع ثم نحو شوارع إيسي الهادئة عساه يجد زاوية نائية لينفرد بنفسه، ظلاً رطباً ليتسنى له أن يغمض عينيه. فجأة لاحت أمامه كنيسة «سان إيتين». لطالما مرَّ أمام هذه الكنيسة، ربما ألف مرة، فصديقته مانون تسكن على مقربةٍ منها بنفس الشارع، ما دخلها قط فهو مثل والده لا يؤمنان بأي إله. سحرته هذه

الزخرفة المعتمة رغم أنه ما فهم منها شيئاً خلا صورة يسوع المسيح الكبيرة أما الرسومات على الزجاج أو اللوحات خلف القناطر فكانت بالنسبة إليه مبهمةً تماماً. تساءل في سرّه «ترى هل يحق لي الجلوس على أحد الكراسي؟» قبل أن يلمح امرأةً عجوز تحني رأسها بين كتفيها وتغفو، ففعل مثلها وقد فُتن بالهدوء والعتمة وسرّته رائحة البخور الغريبة التي تشبه رائحة المخدر. تتخلل أشعة الشمس من زجاج النافذة وتتمايل على البلاط فترسم لوحاتٍ ملونةً سلبت لبه. أخيراً عثر على زاويةٍ ليغمض عينيه ويلاقي والده المتوفى، فهو لا يرنو للاحتفاظ برسم جادة رودان في مخيلته وإنما جثمانِ والده الذي يرتعش تحت البتلات...

التي يذكرها جمعة ويذكر أنه وفي عمر السادسة كان يؤويه شيءٌ ما مثل السقفِ، وها قد مرت عشر سنوات ولا يزال أسير وساوسه و ما زال سره دفيناً.

غُسل جثمان والده وأُلبس بنطالاً وقميصاً، لم يكونا له، ثم مددوه على فراش الزوجية وبعثروا بضع زهورٍ من الياسمين على رفاته الرخو كقططٍ ميت. توافد أناسٌ لم يتعرف على وجوههم وشرعوا بالصلاة، فهم جمعةٍ حينها أن والده وافته المنية. سمحوا لوالدته بالدخول بعد أن فرغوا من عملهم. كانت والدته تنوح مصدرةً ضجيجاً أمام الباب المطل على الشارع منذ ساعة تقريباً، وقد أمسكت بها الجارات اللواتي لم يعد يذكر أسماءهن. ما إن لمحت جثمان زوجها تحت الزهور حتى بدأت بالعويل فبكى جمعة خوفاً، وغرق بأمواجٍ من الناس يدخلون ويخرجون، جيران وأقارب لم يعد يذكرهم تماماً. اقترب من السرير حيث يرقد جثمان والده بعد أن مسح دموعه المنهمرة، ودّ تقبيل جبين والده كما فعلت والدته، إلا أنه لم يصل إليه وما ساعده أحدٌ ليقوم بذلك، فاكتفى بتقبيل يده التي ارتعدت تحت شفتيه، إنه على ثقة بأن يد والده قد تحركت، فصرخ يقول لوالدته

«إن والدي لم يمت!». لم تصغِ إليه والدته وأمره الجميع بالتزام الصمت. كيف يصمت؟ كيف له ألا يصرخ ووالده حياً يرزق؟ كيف لا يرفع صوته وكل الناس من حوله مخطئون؟ والدي مازال يتحرك، لعل بوسعنا نقله إلى المستشفى؟

ألحوا على جمعة أن يصمت إلا أنه استمر بالصراخ حتى طغى صوته على نواح والدته فاستدارت نحوه، لم تكن تبكي، وصفعته بقوةٍ تفوق العادة وطلبت من الأقارب إخراجه، فركله أحدهم إلى الشارع. جلس على الوحل الذي خلفته أمطار ليلة أمس ثم لطّخ ذراعيه ووجهه بهذا التراب النتن، بقصد أن يزعج والدته خلف الباب الموصد لأنها توصلت لقتل والده الذي أحبه حباً جماً تحت سقف بيتهم الطيني.

سرد هذه الحكاية لمن رغب بالاستماع إليه في شوارع القاهرة في الحي العلوي لدار السلام حيث يهيمن البؤس ويكتظ السكان بشدة لدرجة أن أطلق عليه اسم «الصين الشعبية»، تبناه هذا الحي البائس فروى لهم كيف سقط والده من الطابق السادس في إحدى ورش البناء، ثم نقلوه ميتاً إلى المنزل، إلا أنه كان على قيد الحياة. فشرحوا له أن أجساد الموتى تنتفض بحركاتٍ لاإرادية حتى أنهم قد يصدرون أصواتاً لاإرادية، فلسكان هذا الحي خبرةٌ ضارية بالعمق مع الموت، إذ كثيراً ما يزورهم لينتشل من سقط ضحية الصخور التي يقوم عليها هذا الحي والتي لا تكف عن الانهيار حاصدةً معها أرواحاً عديدة.

رغم هذا، ففي كل مرةٍ يصادف فيها رجلاً يشبه والده أو بالأحرى يشبه الصورة الغامضة التي تلوح في مخيلته، يعجز عن مقاومة التفكير بأن هذا الرجل هو والده فيرغب أن يركض للقائه ويقول له: «بابا هذا أنا جمعة ألم تتعرف علي أنا ابنك»، لكنه ما فعلها حتى الآن خشية أن يتسبب له بالحرج لو حدثت معجزة «أن يكون والده»، فهو يرتدي ثياباً رثّة لملمها من الحاويات.

إنه على موعدٍ مع صديقه رجب أمام الصالة الصغيرة التي تردف الجامع، بجانبه بائع الفروج ذي الرائحة النتنة، لاحت أمام ناظريه صورة والده الذي يرتعش جثمانه تحت الأزهار خلال الوقت الذي انتظر فيه مجيء رجب، حيث شاهد القاتل ذا الدم البارد يقطع رقبة الدجاجة ويرميها ليتم نتف ريشها.

هل مازالت على قيد الحياة! رآها تتخبط على الدف الخشبي، رأى أحد فخذيها يرتعد، ثم طرحها «عزمي» على طاولةٍ حجرية وفصل رأسها ونظف أحشاءها.

تغمد الله جدته عزيزة برحمته بعد مضي عدة أشهر من وفاة ابنها، لقد كانت تحضّر في أيام المناسبات «ملوخية بالفروج». ما عاد يذكر متى تذوق الفروج لآخر مرة.

يتناول سكان الحي العلوي لدار السلام الفروج مرةً واحدةً خلال الشهر أما من يسكنون الحي السفلي فيتناولوه لمرتين أو ثلاث مرات.

محل عزمي يقع بالفراغ بين الحيين فهو يشجع صغار الموظفين في الحي السفلي بالصعود إليه لشراء الفروج الذي يعادل يومي عمل رغم أن عزمي يبيع الفروج بسعرٍ أقل من غيره بليرتين، فيشجع أيضاً المياومين في الحي العلوي بالمجيء إليه لشراء فروجٍ يعادل بالنسبة لهم عمل ثلاثة أو أربعة أيام.

أما جمعة فلا تراوده أبداً فكرة شراء دجاجة مهما كانت الظروف فهو يفضل تناول الفلافل ذي رائحة القلي الشهية والفواحة، يلفه بخبزٍ ساخن مع القليل من الخضار، مما يضفي عليه متعةً لذيذة.

ضرب موعداً مع رجب هنا في الفراغ الفاصل بين الحيين حيث يشق الدرج طريقه الوعرة بين الصخور، بين حطام المنازل التي أمر الحاكم بهدمها قبل أن تنهار من تلقاء نفسها فتتصدر الصحف بكوارثها.

يمتد الحي خلف الصخرة، ركام من الأبنية بلا شكل ولا هوية

معمارية، إذ بُنيت بشكلٍ مخالف، أبنيةً ذات قرميد أحمر، تتوقف عند الطابق الخامس حيث تزدهر الأقواس.تتراوح الماء والكهرباء فتارة مقطوعة وتارةً موجودة، يتعلق هذا بتحويل الماء أو برشوة موظفٍ صغيرٍ من الحي السفلي.

بنظر الحاكم هم ليسوا سوى مئات آلافٍ من المواطنين فلا حاجة للشوارع التي إن بحثت عنها لوجدتها تأنُّ تحت طبقةٍ من الأوساخ المتراكمة حيث تطفو أكياس النايلون التي لا تطالها العفونة، يجد الكلاب والذباب في هذه المتاهة التي ترسمها هذه الأزقة الضيقة مرتعاً آمناً لهم، وكذلك الأطفال الذين لا يجدون من الطعام إلا ما يبقيهم على قيد الحياة.

ترعرع جمعة وحيداً في أحضان هذه الأزقة الشائكة بعد أن طردته والدته بعمر الثامنة نتيجة زواجها الثاني. في بعض الأحيان، تضمه مجموعةٌ لأطفالٍ مشردين بثيابٍ رثة سرعان ما يغادروه، فليست أزقة الحي العلوي بجنة عدن وإنما مملكةٌ متواضعة يحفظون أدق تفاصيلها بل كل مخابئها السرية حيث يمكنهم الاختفاء حين يباغتهم الرجال ذوو الزي الأسود.

هناك نحو الأسفل، يلوح عالمٌ يعجُ بالسكان بأزقةٍ محدودة الطول تبدو كحزوزٍ ضاريةٍ بالعمق والعتمة في كومةٍ هائلةٍ من الأبنيةِ القذرة المثقلة بكل ما يتبادر لذهنك من محلاتِ بيعٍ تقاسموا فيما بينهم السهول الغافية على ذراع النيل والتي طالما تمت زراعتها.

أزقةٌ بشوارعٍ غير مكسوة بالزفت لا أرصفة لها حيث يتدافع الحشد المزدحم بشكلٍ دائماً ويتخبطون في الممرات القليلة التي يجتاز فيها هذا الزقاق طنبرٌ يجره حصان أو تكتك وبالنادر جداً تجازف سيارةٌ بالعبور.

يحد هذا الحي من الغرب سكة الحديد ومن الجنوب حقولٌ نجت بأعجوبة من براثن التجار. عندما تجتاز هذه الحدود يمكنك أن تلمح حياً رفيع المقام هو حي المعادي، ضرب جمعة موعده مع رجب عند نهاية الحدود.

رجب صديقه الذي ربط بينهما البؤس علاقةً يصعب نزعها حتى أن أهل الحي أطلقوا عليهما «القشطاط» وهي بيادق لعبة النرد الأسود والأبيض، عندما كان يعمل جمعة لدى الفحّام ورجب عند الخباز، حتى عندما تركا عملهما في الصيف هرباً من الحر الذي يلقيه الفرن على طبقتي الطحين والسخام التي تكسوهما. بقيا «القشطاط» حتى حين كان جمعة يجمع العلب الكرتونية الفارغة ويبيعها حسب الوزن وعمل رجب كبائعٍ متجولٍ للمحارم الورقية.

إنها أمسية الخامس والعشرين من يناير، وها هي صور المتظاهرين في ساحة التحرير تعرض بتحدٍ على قناة الجزيرة. قرر كلٌ من جمعة ورجب الانضمام إليهم بعد أن قارنوا أعداد الموالين والمعارضين.

واجه الموالون للثورة شرطة مكافحة الشغب وتوعدوا بالعودة غداً فحلمهم بالتخلص من قائد الرجال ذوي الزي الأسود «حسني مبارك» كان يقوي عزيمتهم، إذ كلما ازداد عددهم وقويت عزيمتهم كلما وجد حلمهم الحظ الأوفر ليتحول إلى واقعٍ ملموس.

يستحي المعارضون للثورة من هيئتهم وأمتعتهم وقذارتهم أمام شبان الفيس بوك.

اقترح جمعة فكرةً نالت إعجاب الجميع وهي الاغتسال من صنبور قاعة الصلاة في الجامع حيث بوسعهم تبديل أحذيتهم أيضاً .كأنه وقت صلاة الظهر، دخلوا الجامع ووقفوا أمام صنابير المياه وبللوا رؤوسهم غير آبهين ببرد الشتاء ودعكوه بالماء والصابون وكذلك أذرعهم وأقدامهم كما لو أنهم ينوون الوضوء بيد أنهم لا ينوون الصلاة.

ما نوى جمعة قط الصلاة في الجامع فما اكترث أحدٌ يوماً ليعلمه ذلك، عادةً ما يرتاد الجامع لأسباب أخرى، بحثاً عن الأمان من الرجال ذوي الرداء الأسود أو ليحظى ببعض الظل والرطوبة.

طالما استحوذت واحة السلام هذه على جمعة بصمتها وهدوئها رغم

صخب الحي، تخطفه النشوة السماوية التي تداعبه فيتلذذ بسحرها طويلاً، لكن الآن لا وقت أمامه فالصلاة سرعان ما تنتهي. اعترضه رجب بعد أن تم الاتفاق بمبادلة الأحذية عند عتبة الجامع بشرط أن يعيد كلٌ منهم حذاءه مساءً، هذا هو الشرط الوحيد لاستبدال أحذيتهم القديمة البالية بأحذية شبان «الفيس بوك». رغم ضيق الوقت اتكأ على أحد الأعمدة لينعم بقسطٍ من السلام فأغمض عينيه...

تراءت له صورة جثمان والده في الكنيسة، تتماهى صورته رويداً رويداً في عالم النسيان فتضيع حدودها وتتلاشى ألوانها و تشعُ في دنيا الأحلام، لم يحتفظ سوى بذكرى ذاك الشعور الغريب بالسعادة التي ملأت قلبه برؤية والده ميتاً، لماذا يا ترى فرّحه موت والده؟ أليس هو الشخص الذي يجب أن يحبه؟ أليس هو الشخص الذي يجب أن يريعه غيابه أكثر من أي شخصٍ آخر؟ ألم يكن ليجد نفسه وحيداً دون والده في حضن عائلة تتبناه؟ أليس هذا والده الذي دلّله كثيراً وأفرط بدلاله بعد وفاة والدته بحادث سيارة وهو بعد ما أتم السابعة؟

إنه والده الذي غمره بحبٍ عارمٍ ولا يرفض له طلباً مهما كان كبيراً، والده الذي راعَى مشاعره لأبعدِ حدٍ فما تزوج مرةً أخرى بل وما انتزع صور زوجته المفقودة لئلا يتسبب له بالألم، رغم أنه تشارك الحياة تحت سقفٍ واحدٍ مع عدة نسوة بدءً بماريون ثم لويز ثم آنا لتعود مجدداً لويز. والده الذي يعطيه بسخاءٍ فهو يقدم له أربعين يورو كمصروفٍ في الأسبوع.

لماذا أدخل موته الحبور إلى قلبه؟ هل يكرهه إلى هذا الحدِ؟ لأنه كان يلحُ عليه عبثاً بالحد من هوسه بألعاب الفيديو؟ أم لأنه كان يمضي الليل مدققاً على ملاحظاته ووظائفه وعلاقاته؟ أم لأنه يفرض هذه الواجبات المرهقة مقابل هدايا مقيتة مثل زيارة جدته الشبه مجنونة أو إمضاء عطلة عيد الفصح مع أبناء عمه المعتوهين؟ لم يبدُ كل ذلك سبباً كافياً ليرغب

بموت والده. إذاً ما الذي دفعه إلى هذا الحلم؟ هل يدلُ على حقيقةٍ هاربةٍ في أعماقه أم بالعكس؟ أم أن سوء تصرفه يحمل أفكاره لتغمرها الدهشة حدَّ الاستمتاع بالمطلق والمجهول الجذري واللعب بالمشاعر الأكثر توطداً؟ كيف له أن يعرف حقيقة مشاعره؟ ليس له سوى أن يسارع بممارسة حلمٍ هنديٍ جديدٍ. رنةُ جوال تقشع عنه الأفكار فيفتح عينيه ليرى السيدة العجوز الجالسة على المقعد وقد استدارت نحوه وهمست بجملٍ مبهمة، يبدو أنها غير لطيفة.

أجاب على هاتفه وإذا بمانون تلّح عليه بالمجيء إليها فوراً فهي تود التكلم معه ولكن وجهاً لوجه، تذرَّع ناتان أن عليه التدقيق بقصةٍ ما فهو يفضل اللعب بـ«Serious Sam3» التي حملّها عن شبكة الانترنت ليلة أمس، إلا أن مانون أصرت وكأن المسألة مسألة حياةٍ أو موت.

فجأةً اختفت البقع الملونة على البلاط الحجري وانقلبت الكنيسة باردةً وحزينة مثل مدخل قبر.

تسكن مانون على بعد 200 متراً من الكنيسة في مبنىً أنيقٍ وحديثٍ في شارع جيل - غوسد. ترغب بمزاولة مهنة المحاماة مقتديةً بوالدها الذي يعمل قاضياً في المحكمة، أما ناتان فكان يراها أسوء مهنةً على الإطلاق إذ يرافق كل الجرائم، حسب رأيه، ظروفاً مخففة من جنونٍ وغيرة وطفولةٍ مدمرة وبؤسٍ كما أن لإغراء الثروات المترامية تحت أنظار الفقراء سواء كانت جامدةً أم مجرد شهوات ضلعاً في هذه الجرائم.

يختلف ناتان ومانون بهذا الرأي، فناتان يُبرِّءُ كافة المجرمين في حين أن مانون تجد في القصاص حياة وتؤيد عقوبة الإعدام لقاتلي العجائز والأطفال، وتوافق على عقوبة الأشغال الشاقة للقاصرين مهما كانت الجنحة. إلا أنهما يتفقان في نقاط أخرى عديدة مثل كرههم للمدرسة ولكل المواد التي يتم تدريسها بالإضافة لبرامج التلفاز ماعدا بعض المسلسلات الأميريكية. كما أنهما يكرهان رؤية الدم والروائح المقزِّزة التي تفوح من

الناس في المترو أو في الصالة الرياضية وينفران من رائحة الجبنة القوية ومن رؤية أفلام البورنو، إنهما يرفضان كل أشكال القذارة والحشرات ولا يطيقان تنظيف السمك من الحسك لتناوله ولا دهن بعض اللحوم.

نعم إن ما جذب ناتان إلى مانون وأبعده عن جوستين هو اشمئزازها مما هو قذر فمانون فتاةٌ هيفاءٌ رشيقةٌ، يلقي شقارها طيفاً من الشحوب على وجهها لتشبه «*Vénus* de Botticelli» المصوَّرة في بطاقة بريدية فوق مكتب والده. كما أن شعر جسدها ستارٌ حريريٌ لبنيٌ يكاد يكونُ غير مرئـي. لم تكن مانون تلهث أو تتنفس مثل فتيات أفلام البورنو عندما يمارسان الحب أيام الأربعاء أو في بعض أيام عطلة الأسبوع كما أنها تسرع لتأخذ حماماً قبل أن تطغى الروائح الخاصة على العطورات التي تنثرها، هذا ما يفضله ناتان الذي يثير اشمئزازه الاحتكاك ببشرة الآخرين لذلك فهو يفضل ألا تطول تلك اللحظات أكثر من الوقت اللازم لإشباعٍ طبيعي لرغباته والتي يجد أنها أكثر امتاعاً بممارستها شخصين لا بمفرده ومع فتاة لا مع صبي، هذا ما تحقق منه بعد تلك الأمسية التي أقنعه فيها راف بأن عليه تجريب كل شيء وأن الفضول يكشف له متعة اللهو مع الصبية ولكن سرعان ما ارتطمت هذه المحاولة باليأس فالاستمناء المتبادل أكثر مللاً من التمرينات الرياضية.

بدا الاضطراب جلياً على ملامح مانون حين فتحت له الباب وسحبته إلى غرفتها في شقةٍ ذات سقفٍ منخفضٍ لا غرابة فيها ومفروشة بفرش سويدي يجده ناتان كارثي ولم تغير الشمس اللطيفة التي تخترق الزجاج لتضيء المنزل من منظر ذلك الفرش.

أشارت مانون إلى الحاسب وطلبت منه أن يرى ما ظهر على الشاشة حيث كان هناك «معلومات حول لعبة الوشاح» «الحلم الهندي» ضمن تقريرٍ تم إعداده إلى «السيد وزير التربية الوطنية»، تساءل ناتان في سره: كيف تمكنت مانون من الوصول إلى هذه المعلومات. ربما بساعات من البحث

الدؤوب عبر موقع « google» وبالتنقيب بالصفحات 20 أو ربما 30. لماذا؟ ماذا تريد أن تعرف؟ ما الذي لم تعرفه بعد؟

ما إن قرأ الأسطر الأولى حتى فهم ما تريد:

«لعبة الوشاح هي لعبةٌ تتم ممارستها بمفردك أو ضمن مجموعة لتسبب حالة إغماء خلال مدة قصيرة، إنها لعبة شهيرة تخلق أحاسيساً فريدة وتلقي نوعاً من الحبور. ولكن للأسف لهذه اللعبة أضرارٌ خطيرةٌ على القلب والأعصاب كما أن نتائجها قد تكون حتمية.

تساءل ناتان: حتمية أي مميتة؟

فأجابت مانون بلهفة:

– نعم! تابع القراءة.

يشقُ على ناتان قراءة ست عشرة صفحة، فأردف بالقول:

– يريدون القول أن هذه الممارسة قد تكون خطيرةً على الصحة أو حتى قاتلة إنها مثل أي شيء آخر يا مانون، ركوب سيارة أو طائرة أو دراجة، ربما التزلج حتى تناول الطعام قد يكون محفوفاً بالمخاطر.

كان ناتان ينطق دون أن يعي ما يقول تماماً، فهو غير مقتنع بأن قطع الأوكسجين عن الدماغ هو أمرٌ عاديٌ مثل تناول اللبن، فاللبن ذو نكهة الفراولة لا يضفي سوى إحساساً محدوداً بالاكتفاء خلافاً للحلم الهندي الذي يحمله على جناحٍ من الإحساس والمتعة لايضاهيه أي نشاطٍ آخر، حتى التدخين الذي يترك في الفم طعماً كريهاً.

تمضي الحياة مُثقَلةً بالسأم ومُضجرةً بهدوئها، لقد زهد من هذا العالم الفارغ المقيت الذي ينتظر بملل بضعة أحداث ليسري فيه بعض الاضطراب، إنه يجد في هذه اللعبة ما ينوِّر ملل الأيام المقيت وما يلونُ ليلاً لا قمر فيه بألعاب نارية تضفي البهجة في النفوس.

انفجرت مانون باستغراب شديد وبدا أنها لم تعد تسيطر على نفسها:

- إنك أحمق يا ناتان! أنت تعلم أن هذا لا دخل له بموضوعنا. إني أمنعك من اللعب مجدداً بهذه اللعبة الخرقاء!

طبعاً لم يكن باستطاعتها منعه من شيء إلا أن ناتان قرأ في عينيها مقايضة لم تجرؤ على قولها فإما هي أو الحلم الهندي، إما أن يمتنع عن الحلم الهندي أو هو شقاقٌ بينهما.

أضافت مانون: «أقرأ على الأقل الصفحة الأولى لا بل الأسطر الأولى». ثم مررت الصفحات حتى وصلت إلى الصفحة التي تحمل معلوماتٍ هامة: «يتسبب الهيبوكسي بتوقفٍ للقلب ذي نتائج تتراوح بين الخطيرة جداً والأقل خطورة، فمن وجهة نظرٍ عصبية فإن دورة «خنق - اختناق - إغماء» تجرُ آثاراً خطيرةً على الدماغ، وبعواقب وخيمة قد تصل إلى تدميرٍ نهائي لبعض الوظائف فتحول لاعبها هشاً «كالخضار» إلى أن ينتشله الموت.»

لم يكن ناتان يعلم أن أحد قواعد اللعبة هو ثلاث دقائق، نعم، لقد قرأ ما كُتب «ثلاث دقائق» يجازف فيها بالموت، إن هذا شديد الإثارة. عادةً، يكتم أنفاسه ويدع نفسه يختنق لعشرات الثواني، أخبره نيكولا ألا يتجاوز خمس عشرة ثانية. هناك فرقٌ شاسع ما بين خمس عشرة ثانية وثلاث دقائق، إنه هامش يثير الفضول بالاستكشاف.

خاطب ناتان مانون قائلاً:

- مانون، تحدثوا عن ثلاث دقائق، أنتِ تعلمين أنني لا أمارسها إلا لخمس عشرة ثانية فقط.

لم تتوقف مانون عن الصراخ، اعتبرته أخرقاً إذ لا داعي للاستسلام لما يحيلنا بهشاشة الخضار أو ربما عاجزين أو مصابين بالشلل، لم يعد ناتان يصغي لهذا الحوار الطويل الذي يعجُ بالأدلة الخرقاء، صار يراقب حركات فمها الذي يصدح بلهجةٍ محتدة فيها بعض الرعب. تأثَّر بأنها لا ترغب أن تفقده لكن الملل تملّكه. لا يرغب أن تربط بينهما علاقة «زوجين»

يكفيه أسر والده والمدرسة والحي كما أنه سجينٌ لفقدان الأمان مساءً في القطارات السريعة.

استاء ناتان من هذا الخطاب ذي البراهين الواضحة والتهديدات المبطنة بأن تخبر والده، فانتابه الدوار وبدأ بالتأفف، شقَّ عليه البقاءُ في هذه الغرفة، ودوى في أذنيه خطوات الجيران في الطابق الذي يعلو هذا القبو حيث يسكنون فنهض عن كرسيه الدّوار، ثم اقترب منها وأمسك بذقنها برقةٍ متناهيةٍ، قال:

«هدئي من روعك، لا تقلقي، أنا أعرف ما أفعل. لن أموت».

هدأت فوراً إلا أنها أجهشت بالبكاء فطبع قبلةً على شفتيها الحزينتين، وغادر غير آبه لصراخها المتأوه ورجاءها له بأن يبقى.

بدا المصعد بطيئاً، وشارع جول - غوسيد كئيباً ومقفراً لا يتحدى هدوءه سوى رجلٍ ينزه كلبه، أغمض عينيه في طريق عودته إلى شارع رودان فلا يرى «أعالي إيسي» الحي السكني الناصع بأشجاره وأزهاره المتصنعة التي يجهلها تماماً.

لم تتجاوز بعد السابعة مساءً، لديه متسعٌ من الوقت ليجرب لعبة «Serious Sam3» التي ما تمكن أليكس من تركها قائلاً: «حقاً هي لعبة إطلاق نارٍ بسيطة وغبية جداً لكنها في إطار مصري خلابٍ».

لساعةٍ قبل وقت العشاء سيهرب أخيراً...

إلى هناك خلف البحر الشاسع حيث يزدهر حُلمه، حُلمه بعملٍ ذي مردود جيد يساعده على ادخارٍ يشتري به عند عودته إلى مصر منزلاً مفروشاً بأفضل تصميم وجوالاً وحاسباً وسيارةً ويبني له عائلةً صغيرة، هناك خلف البحر مترامي الأطراف يلوح الحلم في أوروبا في فرنسا حيث هاجر صديقه محمد في السنة الفائتة عبر معابرٍ ليبية.

ترى هل سيتمكن امتطاء العالم الأفضل هارباً من دار السلام من

القاهرة من مصر؟ حلمٌ يداعب كلَ اليافعين في دار السلام، عشرات آلاف من الصبية يحلمون بالهجرة إلى أوروبا وتتفاوت أحلامهم بحجمها ولونها وجمعة واحدٌ منهم يحلم نفس حلمهم ويراوده في كل ساعة، يتمزق بين حلمه وشوقه، شوقه الدائم للشوارع التي ترعرع فيها وأصدقائه الذين شبَّ بينهم. كيف للفراق أن يخطفه من رجب الذي تجرَّع معه كؤوس الحياة وتقاسم كل الأسرار وغفيا معاً تحت جنح الليل؟ كيف له أن يترك مصطفى المخنث ذي الصوت الشجي والذي يقصُ لهما شعرهما ويداعبهما بحميمية! وكريم المُقعد الذي يكابد في المسير بعد أن التوت ساقه لأن الشرطي دعَّه نحو الجدار عن بعد عشرين متراً، كريم الصغير ذو الأربعة عشر ربيعاً والذي لا ينفك يضربه بخمسة وعشرين قرشاً! كيف ينسى ياسين جامع الريش، أجمل شابٍ بالحي بشعره الأشقر وعينيه الزرقاويين وأردافه البدينة التي يعيرها طوعاً فهو ذو قلبٍ طيب.كيف يفارقهم جميعاً، رفاق دربه؟

الآن سيهرب جمعة ورجب من دار السلام ويلتحقا بعاصفةٍ تهبُ في مركز المدينة أملاً ألا تتحسر. تنثر ريح الغضب في السماء رائحةً فواحةً للحرية والثورة.

ليس بحوزتهما ليرتان ثمن بطاقتي المترو لذلك قررا الوصول إلى أسفل الحي وعبور الجسر الذي يعلو الطرقات سيراً على الأقدام ثم وصول كورنيش النيل هناك سيتمكنان من التعلق بإحدى السيارات المارَّة.

ينتعلان حذاءين قديمين لا يتناسبان مع موضة الفيس بوك، لكنهما خُفَّان يسهلان لهما العبور والركض بخفةٍ، خرجوا من الجامع قبل نهاية الصلاة وحثوا الخطى باتجاه الأدراج الأقربِ.

اجتمع حشدٌ من الناس أسفل الدرج مزمجرين يسودهم الاضطراب وتموج فوق رؤوسهم أعلامٌ بألوان «الأسود والأبيض والأحمر»، اجتمع عشراتٌ من فتية الحي ممن أرادوا الانضمام لساحة التحرير، حيث أغلق

صفان من الحرس بزي أسود مدخل الحي السفلي، مدججين بهراوات ويعتمرون خوذ وإلى جانبهم سيارةُ شرطة تلقي الرعب بنوافذها ذات الشبك. جاؤوا ليتحكموا بمصير من تبقى في عالم الأحياء.

تمكن جمعة ورجب من التعرف على الضابط حسام وهو يقول «شمرّوا عن سواعدكم» وإلى جانبه مساعده صفوت، وهما شخصان فظان لا يعرفان سوى تكسير الضلوع واللواط بعصا المكانس.

تموج في هذا الحشد الصغير صرخاتُ غضبٍ وأخرى رضوخٍ تتراوح بين الجموع.

قِيل أن هناك نفس الحاجز عند كل المنافذ إلى ساحة التحرير، فحكومة اللصوص والكلاب المسعورة قررت إغلاق المعابر إلى مركز القاهرة حتى لا ينضم إليها الجماهير الأكثر بؤساً و يعدون بالملايين والذين ليس بحوزتهم ما يخسروه سوى رِيح الموت.

سجناء في مكانهم بين السماء والأرض، لا دروب لهم إلى ينابيع الحياة.قد يردون قتلى حين يعوي الجوع بين هذه الحشود التي تُعد بمئات الآلاف إذا ما دام حصارهم لأسابيع وسيبدأ الموت وليمته بالطاعنين بالسن والأطفال المرضى، لترمى جثثهم النحيلة في المقابر حيث بالكاد سيجدون لهم فراغاً يضمهم حتى بعد موتهم، إلا إذا حدثت إحدى المعجزات وتمكنت الحشود من بَقر بطون السجانين الواحد تلو الآخر.

يمضي اليوم الأول وكأن شيئاً لم يكن. تلقي الحياة ببضعة أشعة أملٍ وتنثر طيفاً للسعادة هنا وهناك، أدوارٌ يمثلها بعض الممثلين البارعين في الأزقة والمقاهي وبعض المُحال التجارية الصغيرة.

ها هو عزمي يجهز دجاجة لإحدى زبائنه التي يبدو الفرح جلياً يلوح تحت خمارها الأسود بالإجازة التي حصل عليها ابنها المجند، فها هي تُسارع لشراء الدجاج لتحضر له طبقه المفضل «الملوخية».

صرخ عزمي عندما رأى جمعة ورجب يمران وأومأ لهما بالعودة:

– يا قشطاط! لا أدري ماذا تفعلون في هذه الأثناء، ولكن إن كان أحدٌ منكما يبحث عن مكانٍ جيدٍ حيث يحصل على عملٍ ثابتٍ يمنحه احترام الآخرين بمردودٍ خمس ليراتٍ باليوم، الله يبارك، فليقصد سمير جامع الريش فهو يريد صبياً يحل محل ياسين.

سأل جمعة: وهل غادر ياسين؟

– التحق هذا الغائب بالمظاهرة أمس واعداً بالعودة في مساء اليوم ذاته، انتظره سمير طيلة المساء ونهار اليوم التالي إلا أنه لم يأتِ. قرر عندئذٍ سمير أن يطرده وخاصة أنه لطالما عانى من بعض سلوكياته التي ليس بوسعي ذكرها أمام هذه السيدة الموقرة. على كل حالٍ، لقد اتصل بي وسألني أن أرسل إليه صبياً على محمل السرعة.

– وكيف سيمكننا عبور الحاجز الذي تفرضه الشرطة؟

– أعطى سمير لحسام عشر ليرات، طبعاً لم يكن الوحيد فكل من يريد العبور يعطي عشر ليرات للمساعد. إذاً، ما عليك سوى حمل كيس الريش فيفهم المساعد ويسمح لك بالعبور.

– سأل رجب: هل بوسعنا حمله معاً؟

– كلا، يا ابن الحمار! قلت لك سمير بحاجة لصبيٍ واحد فقط، كما أنه لم يعطِ للمساعد سوى عشر ليرات. إما جمعة أو أنت.

– قال جمعة: سنأخذ وقتاً لنقرر.

ابتعد الصَبيّان عن المتجر ذي الرائحة النتنة، ابتعدا عن الجامع لئلا يمرا بأحذيتهم المسروقة وغاروا في متاهة الأزقة التي تعجُ بالأطفال ذوي الثياب البالية والباعة المتجولين، تلك الأزقة حيث تنبح الكلاب المسعورة ويطنُ الذباب الشره.

تنوء الأكواخ الطينية، مرهقةً متماهيةً مع الفراغ،بعيداً عن تلك الأبنية التي يكسوها القرميد والتي تتوالى الواحدة تلو الأخرى دون كللٍ أو ملل. بين ما يلوح من بعيد وما يبتلعه الأفق، هناك حيث تبدو دار السلام

كمدينةٍ حالمةٍ بين السماء والأرض. مدينةٌ من كوابيس تحلّق في الفضاء بجناح الوقت على بساطٍ طائرٍ من الأوساخ. لطالما تعلّقت روح جمعة ورجب بهذه المدينة وما لاحظا قط أنها تسبح في الفضاء، فهما دائماً متيقظان كحيوانٍ مطاردٍ يلقي عليهما أي تفصيلٍ جديدٍ ظلاً ثقيلاً من الدهشة والضيق يتخلله شعاعٌ من سعادةٍ عابرة.

يرتاد الناسُ هنا قهوةَ أيمن ويطيلون الجلوس على تلك الكراسي البالية البلاستيكية، فهي القهوة الأقل غلاءً والأكثر قرفاً في المدينة.

كثيراً ما افترشا أرضها واحتميا بسقفها عند هبوط الليل في تلك الأيام الجميلة التي عملا فيها كبائعي محارم وجامعي لعلب الكرتون.

قصد الآن رجب وجمعة قهوة أيمن لرشف الشاي وليتشاركا على «نارجيلةٍ» بنكهة التفاح، قهوةٌ لا تتجاوز خمسة عشر مترٍ مكعب، وُضع فوق البراد الصدئ كبلاً هوائياً متصلاً بتلفازٍ قديمٍ من البلاستيك أحمر اللون يتكئ على رفٍ معلقٍ بالسقف.

عادةً ما يحضر أيمن الشاي بيدٍ ويغير قنوات التلفاز بيده الأخرى ليتوقف عند أفلام العبادة التي لم يسأم منها أو عند أحد «الكليبات» المثيرة، يتوقف بشكلٍ خاص عند مباريات كرة القدم التي تلفت أنظار روّاده العشرة المتكدسين على طاولات القهوة.

ليلة أمس واليوم أيضاً، توافد الناس بالعشرات بمختلف الأعمار لينضموا لزبائنه العشرة، وقفوا بأنظارٍ مندهشة ورؤوسٍ مرتفعة نحو التلفاز الأحمر الذي لا ينفك يبث صوراً للمظاهرات التي يشهدها مركز المدينة.

يتصاعد الدخانُ الأسود من الإطارات المشتعلة و تحلّق اللافتات فوق رؤوس المتظاهرين تندد بحشود شرطة مكافحة الشغب. تتهاوى مئات العصي على حشدٍ من الناس المنهارين وتبعثر خراطيم المياه حشوداً أخرى على طول الرصيف.

موجٌ من شعبِ القاهرة يذهب ويعود، شدُّوا عزيمتهم لمواجهة الضواري وسلاحهم العتيد، ها هم يحتمون بالدروع من حجارة الشعب الملتهبة حقداً. هـزؤوا مـن الخـوف الـذي ربـض طـويلاً في قلـوبهم، إنهـم يتحـدون الـضرب والـسجن لا بـل يجـابهون المـوت هـازئين بـه فلـن يعـودوا مطـأطئي الـرؤوس مدفونين في هذه الأحياء حيث يخبو الأمل، لن يغادروا ساحة القتال. بدا ذلك جليّاً في الـصور والعبـارات التي أذهلـت جمعـة وأوقفـت جريـان الـدم في وجـوه الزبائن فسرت في أجسادهم رعشةُ متعةٍ: دقت طبول الحرب...

بينه هو Serious Sam و القبائل المتوحشة الدموية التي تغزو الكرة الأرضية قادمةً من كوكب «مانتال» وبالتحديد في مصر التي كابدت حوالي عام 2200، حرباً سابقةً في المدن الحديثة الخاوية من السكان بأبنية مثقوبةٍ بالرصـاص دُمِّـر بعـضها. تلتـوي نباتـات وادي النيـل الكثيفـة ميتـةً كأشـباحِ المعابد القديمة بقاعاتها ذات الأعمدة حيث تتتالى كتائب الجنودِ بزيٍ أسودٍ موحدٍ. أمـا التماثيـل الفرعونيـة الـضخمة والمسلّات فتحـرض علـى التدمير للتخلص من «سيران الثور الكردماني» الذي يأتي من الجهة الخلفية، يهاجم في كل الاتجاهات، لابد أن يُلغى مهما فعل.

هـدف ناتـان كـان القتـل لـئلا يُقتـل ولحمايـة النـوع البـشري، دون أن يقـدم أي تنـازلات ولديـه عـدة اختيـارات: بندقيـة، هجـومٍ ليـزري، قنبلـة، مسدس نصف أوتوماتيكي. كما لديه راجمة صواريخ ومدفع محمول حتى هراوات. بوسعه أن يستخدم أي سلاحٍ يريد لقتل الوحوش الكاميكاز الذين لا رؤوس لهـم يـصرخون بأصـوات مرعبـة وأياديهم عبـارة عـن قنابـل. إنهـم عمالقة ذوو عينٍ واحدة. علاجيمٌ ضخمة وعناكب وعقارب وأحصنة تتفجر جميعها تحت رصاصاته وضرباته.

أغلق باب غرفته وانعزل عن العالم الخارجي وصمَّ أذنيه بسماعاتٍ تهمس بأذنه، أطفأ الضوء في غرفته فما استطاع النور الخجول للحاسب أن

يقارع الليل وعتمته، واستسلم لحرارة الحماس التي سرت في جسده مستمتعاً بالاضطراب الذي نفثه الابتهاج في ذهنه.

هُزم في أول لعبة له اثنتان وخمسون مرة. لعله ينجح في المرات القادمة لكن سحر هذا البلد سلب لبّه، صحيحٌ أنها صورٌ حديثةٌ لكنها مزيجٌ رائعٌ لأطلال الماضي مع مرحلةٍ خامدةٍ لحياةٍ راحلةٍ ورواسب الغد الآتي الخيالي ملطخةٌ بآثارٍ هائلةٍ لكارثةٍ قد مرت من هنا. كما أن عجائب وروعة هذه الكاتدرائيات القديمة قد استحوذت على عقله، بأسواقها القديمة المهجورة بعد أن هُدمت أبنيتها وثقبت بالرصاص، ما إن ألقى نظرةً على هذه المصر الخيالية حتى شرد بذهنه تاركاً نفسه يُصرع مهزوماً.

لم يغير والده عادته ها هو يطرق على باب غرفته كما يطرق الموت باب الروح، فما كان من ناتان سوى الإذعان للحقيقة والسماح له بالدخول ليقول مبالغاً كالعادة:

– ها قد مرت نصف ساعة وأنا أناديك لتناول طعام العشاء.

أنساه الأدرنالين المتصبب في جسده كل ما حوله حتى الجوع الذي قرع معدته منذ ساعةٍ تقريباً. أدار والده النور واقترب منه مسدّ كتفيه بلطفٍ شديد، فلفتت أنظاره صورة الطريق ذي الأدراج في أحد الأسواق القديمة لمدينةٍ مصريةٍ خلّابة، حيث تشقق طلاء المنازل جرّاء الارتطام الشديد وأُغلقت المتاجر ذات اللافتات مكتوبة بالعربية وعُلقت سلالٌ من القصب وكرسيٌّ وسلمٌ مكسوران مصنوعان من النباتات. تحت أحد الأبنية ذي القناطر لاحَ وحشٌ بدينٌ تسيل منه الدماء لا رأس له أو بالأحرى رأسه منغرس بين عضلات الكتف والظهر وذراعاه قاذفتا صواريخ أطلقتا للتو قذيفةً بذيلٍ متموج من اللهب.

قال والده معلّقاً على الصورة:– لو لم يكن هذا السمين الغبي في الوسط لبقيت صورةً خلابةً.

كان والده يحظى بحنكةٍ في التوفيق بين الأمور تجعل من كلامه

وحتى تأنيبه غير قابلٍ للجدال بل وسَلِس وخاصة عندما يرفقه بحركاته الحنونة وابتساماته الودودة.

تابع قائلاً: «أفضل يا عزيزي ناتان ألا تهدر الكثير من الوقت في ألعاب الأطفال هذه، صحيح إننا جميعنا أطفال خلف مظاهر خدّاعة فليس في هذا العالم سوى الأطفال ربما ضعفاء أو ربما قساة لا يهم، المهم أننا نحب اللعب بهذه الألعاب، حتى أنا أمضي وقتاً لا بأس به وأنا أتسلى بها ولكن ليس هذا على حساب العمل، يفضل يا صغيري في مثل هذه الساعة أن تغذي عقلك الصغير الذي أعشق».

مرّر أنامله في خصلات شعره وتابع:

«أنت تلميذٌ في المدرسة وعليك الاهتمام باللغة الألمانية والرياضيات على سبيل المثال... »

لم يكن والده ليرمي كلماته على سبيل المثال، إنه يعني ما يقول فلطالما اعتبر ناتان هاتين المادتين طلاسم يصعب فك رموزها. المشكلة أن كلمات والده تحصد الريح فناتان لم يعد يصغي إنه يسمع نغمة صوته الوقور الناعم الذي كثيراً ما غفا بشذاه هارباً لأحضان النوم من حزنٍ جثم ثقيلاً على صدره وحدادٍ لا سبيل لسلوانه بعد أن خطف الموت أمه فكان ظمأناً لوجودها ولكلماتها ولأنفاسها ومداعباتها، هو من دونها سيكابد زفرات الحزن حتى تخنقه الدموع وترديه قتيلاً في فراشه.

منذ ذلك الوقت، ما انفك والده عن مواساته والبقاء إلى جانبه ليداعبه ويشدو له بصوتٍ رخيم. يحتدُّ بين الفينة والأخرى ليعلّل مبالغته بالاهتمام به، لكن الظمأ اللاذع الذي يتغلغل في نفس ناتان غيّر فيه الكثير دون أن يلحظ.

هكذا ترعرع ناتان ثملاً بنورٍ رقيقٍ معطرٍ قطفه من الواقع، ما أحب الاقتراب من الحقيقة فاكتفى بهذه الواحة التي تواسيه لكنها ما أخمدت قط سعير ظمأه.

جلسوا إلى المائدة كالمعتاد جنباً إلى جنب، أمامهما النافذة المطلّة على الحديقة ولويز تجلس إلى يسارهما كما جلسن من سبقنها على طرف المائدة قرب المطبخ والأطباق، ما زال الحساء ساخناً.

ما إن شرع بتناول طعامه حتى رنّ جواله، إنها رسالةٌ من «راف» كان يُفضل ألا يستقبلها ولا بدّ أن راف تردد قبل إرسالها: « بوسعي أن أفعل ما هو أفضل».

جملةٌ صغيرةٌ لكنها استحضرت المحاولة اليائسة لذلك اليوم والتي يحبذ ناتان نسيانها. جملةٌ غامضةٌ فهل هي سؤال، لماذا لم يضع اسم استفهامٍ، سؤال أم لا، لا خيار لناتان سوى أن يجيبه «لا» وليكن لطيفاً بعض الشيء كتب «لا يا راف...»، ثم أغلق جواله وانضم إلى عائلته الصغيرة ليضجره الحديث الذي يدور بين والده ولويز حول المطبخ والطبخ، عن النبيذ المناسب مع الأرضي شوكي والطريقة الأمثل لطهي البروكولي وضرورة إضافة الكريمة للفت. فشاح بأفكاره وقال في سرِّه: إنني لم ألحظ اختلافاً في سلوك راف فوراً، وربما لم انتبه جيداً، لم أنتبه أن راف كان خلفي أثناء الحلم الهندي وسندني لئلا أقع أرضاً بل واتكأ عليّ طويلاً واضعاً ذقنه على رأسي في شعري قبل أن يمددني على العشب. صورت جوستين هذا وعرضته لي.

لم يعد يخفى على أحدٍ منذ شهرٍ تقريباً ميول راف ولكن ما رآه أحدٌ مع صبي. أنبَّ ناتان نفسه أن استجاب ذاك اليوم لدعوته وتساءل ترى هل كانت المرة الأولى بالنسبة لراف.

فجأةً طرحت لويز عليه سؤالاً مبددةً أفكاره:

– ألم يعجبك الحساء؟

قال ناتان كاذباً: – بلى بلى، إنه لذيذ.

لم يكن ناتان يأكل سوى الجهة البيضاء من الفروج ويقشّر قطع الكوسا والباذنجان ويرشف الماء بعد كلِّ لقمةٍ، ثم أردف قائلاً:

– كأنك أضفت كميةً زائدة من الزنجبيل؟

– ليس بوسعي إضافة الصويا والكزبرة فاضطررت لزيادة النكهات.

كان ناتان يعاني من حساسية من الصويا والكزبرة وأيضاً من الكيوي واللوز والجوز وسرطان البحر، وأحياناً من الغبار ومن ملامسة بعض المواد.

خشي أن عليه إضافة هذا الشيء الرهيب ذو الزغب إلى القائمة بعد أن حرق الزنجبيل لسانه وحنكه وشعر أن شفاهه قد تضخمت وراوده شعورٌ بالاختناق، فحطَّ منديله وشرب كأس الماء وجلس ينتظر طبق الحلويات.

في اليوم التالي، جلس الثلاثة إلى المائدة بنفس الأماكن لينثر الصباح الباكر عليهم ضياءه الأزرق الرمادي تشدو معه عصافير الصباح، يعبق المكان برائحة القهوة مع التوست التي تحضرها لويز.

لم ينم ناتان بشكلٍ جيد هذه الليلة فقد أمضى ساعاتٍ أمام Serious Sam3 بعد أن قام بكتابة وظيفة العلوم الطبيعة بلا رغبة، وبملل لا حدود له يترافق مع الطحالب وتقسيمها حسب مادة اليخضور.

كان يسيراً على الأب أن يلحظ ذلك فسأله:

– لم تنم جيداً الليلة إلى أي ساعةٍ سهرت وأنت تلعب؟

– أجاب ناتان فاغراً فاهه: – لا أدري، ربما حتى منتصف الليل...

– قُل حتى الثانية صباحاً، لقد سمعت تدفق طاردة المياه حوالي الثانية صباحاً، وأنا أيضاً لم أنم جيداً فاستغليت الوقت للتفكير بأمرٍ ما.. ماذا لو ذهبنا إلى مصر،خلال عطلة عيد جميع القديسين؟ فالحقيقة ليست كما في مجزرتك الافتراضية ولكن في الواقع المصري في أسواقها وأهراماتها ورحلاتٍ في النيل العظيم والكرنك وأبو سمبل...

استغرب ناتان من طرح والده وقال:

– كلا، لقد تحدثنا عن النرويج حيث الأزقة البحرية والحيتان

ونزهاتٍ على الدراجات برفقة مانون. لن يسمح لها والداها بالذهاب إلى مصر.

اعتمد على هذا الدليل كأسرع حجةٍ ضد هذه الفكرة الخرقاء. لن يتجرأ والده أن يحرمه من مانون، في الحقيقة لن تزعجه أبداً رحلةً بثمانية أيام دونها لكنه يخشى من مآسٍ أخرى أشدُّ ألماً، إنه يخشى القذارة والروائح والبؤس ما يرافق البلدان الفقيرة، بالإضافة للحشرات الغريبة والحيوانات الطليقة ولن ينسى الحرَّ الشديد والمطبخ ذا البهار.

– لا تقلق بشأن أهل مانون فلدي حجةٌ قد تفحمهم، فالرحلة إلى مصر أقل كلفةً بمرتين من رحلةٍ إلى النرويج وهذا يناسبني تماماً، والطقس خلّاب في مصر مع نهاية تشرين الأول كما أن النرويج...

حاول ناتان أن يدحض حجج والده الواحدة تلو الأخرى، ولكن لم تتمكن لا الثورة ولا الاعتصام ولا الهياج الشعبي من ثني عزيمته فهذا سيجعل المواقع السياحية شاغرةً مما يتيح لهم الفرصة الأفضل للاستمتاع بها.

كان الأمر سيأن بالنسبة للويز فلكلا البلدين إيجابياته وسلبياته لم يتوصلوا لقرارٍ يجمعهم، للبت بالأمر اتفقوا أن يجروا قرعةً كالعادة فأخرج والده قطعةً نقديةً: «الوجه مصر والوجه الآخر النرويج، موافقون...». استدارت القطعة على الطاولة...

وسقطت على وجهها إذاً جمعة من سيحمل كيس الريش.

اليأسُ الذي رسم على وجه رجب كان مثيراً للشفقة. بالنسبة لجمعة فأن يفترق عن أفضل صديقٍ له من يتقاسم كل الأتراح والأفراح خيرٌ من أن يبقى محتجزاً في مدينةٍ محاصرةٍ، وخاصةً أنه سيحضر حدثاً رائعاً.

تمتم رجب: سأنتظرك تحت الجسر، اذهب برعاية الله.

ثم شاح بناظريه عن جمعة الذي ترك له القطعة النقدية وغادر سالكاً الطريق الذي يوصله إلى محل عزمي في الفراغ بين حيي دار السلام.

يزن كيس الريش الذي مازال مبلَّلا طن تقريباً، ثقلٌ هائلٌ فوق كتفيه وهو ينزل الأدراج والذباب يحوم فوق رأسه شرهاً برائحةٍ نتنة تعجُّ بالمكان لدرجة أن القائد فسح له الطريق دون أن يفتشه وهو يقول:

– امضِ يا جرذ المزابل، ولكن إن علمت أنك لم تعد مساءً فمن الأفضل ألا تعودَ أبداً.

كان جمعة ينوي العودة مساءً لا رغبةً بجولةٍ أخرى مع سمير في متاجر الدواجن، بل لأنه عرف السبيل للهرب نحو ساحة التحرير إذا ما أفلت من شرطة مكافحة الشغب وخاصة الشرطة التابعة للحزب الرئاسي، ربما يعود مع ياسين فيروي لرجب كل ما جرى.

عبرَ تحت الجسر الذي يجمع خطوط المترو، ثم مرَّ بين متاجر الجزارين في السوق الصغير حيث طغت رائحة السمك المشوي على روائح النفايات الفاسدة والرائحة المقززة للريش المثيرة للغثيان.

حاذى الجدار الذي يفصله عن الطرقات حتى وصل إلى الكوة التي يعبرها ليلاً الكلاب والهاربون وبائعو العشب وكذلك بعضُ المختلين.

طرح الكيس أرضاً على الجهة الأخرى من الجدار، أخيراً تخلَّص من هذا الثقل لكنه شعر أن رداءه مبلَّلٌ ويعجُّ بالرائحة المقززة.

استنشق هواءً نقياً ثم اتجه نحو محطة المترو في الشارع المكتظ ببائعي الألبسة والخردة الصينية المرمية على الأرض بشكلٍ مباشر.روى ظمأه من صنبورٍ شعبي بمائه السلسبيل.

شيءٌ ما قد تغير، هناك أعلامٌ ترفرف من بعيد وجوقةٌ من الأصوات تتحدى الصمت، إنها تعلو أكثر فأكثر كلما اقترب نحو المترو.

تناهت لمسامعه شعاراتٌ: ارحل يا مبارك! الشعب يريد إسقاط النظام! خبز حرية كرامة!

هذه الكلمات التي تصدح بها الحناجر تتحدى العالم بأسره.

تعبر بعد محطة مترو دار السلام حدود البؤس إلى الرفاهية إلى

كورنيش النيل. إذ ترتقي الأدراج وتمرُّ أمام شباك التذاكر وبواباتٍ دوارة تدور في الهواء.

طالما فضل جمعة التعلق بشاحنةٍ أو بباصٍ على الكورنيش لئلا يشتري بطاقةً ولكن اليوم كان الظرف استثنائياً، فالبوابات الدّوارة تدور في الفراغ والجميع يعبرون دون أن يدفعوا. أخيراً تخطى جمعة عقبةً منيعةً لطالما بدت له محفوفةً بالخطر بوجود الحرّاس الذين لا يترددون عن ارتكاب جريمةٍ فلا يُنزل بهم عقابٌ. قال في نفسه أن هذه هي السرقة الثالثة التي اقترفها اليوم وبالحقيقة الأمور لم تبدُ كما كانت عليه فلعل الحرية الجديدة ستهديه فخامة الصعود بالمترو بل وأكثر من ذلك فخامة أحياء القاهرة الخلّابة التي تلقي بمهابتها على من حولها. سيرى مدينة السيّاح والفنادق الفخمة، سيقتحم المطاعم العائمة و«Kentucky» و«McDonald's» ومقاهي «الفيس بوك» وكذلك الأبنية ذات الرخام.

منحته الحرب الحق باقتحامها جميعها وكسرها لا بل بإضرام النار فيها لو أبدت مقاومةً في وجهه. استقل القطار القادم من علوان مع جوقة المتظاهرين بأعلامهم ولافتاتهم التي عجز عن فك حروفها، طغت شعارات الغضب التي تصدح بها الحناجر على صخب القطار وللمت بصداها آذان العصر الذي ترفعه مكبرات المآذن على طول الطريق، ما عاد المترو سوى صرخةً تفرز في قلب المدينة. قال جمعة في نفسه: ماذا لو صرخت كل القطارات والحافلات والتوك التوك وصدحت حناجر ركابها بالشعارات نفسها؟ ماذا بوسع قائد اللصوص والمجرمين أن يفعل؟ لا بد أنه سيلوذ بالفرار مثل سلفه «بن علي» بطائرته الخاصة؟ ضم صوته إلى صوتهم وبدء يردد الشعارات التي عبق فيها المكان، يجول بناظريه بين هذا الحشد الهائل يبحثُ عن وجهٍ يعرفه، عن ابتسامةٍ ترشده في هذه المدينة المجهولة، عن يدٍ تمسك بذراعه فيصدحا معاً بالشعارات لمواجهة الظلم، لم يتعرف على أيٍ من الوجوه فجميعهم من الحي السفلي لدار السلام، عمالٌ وموظفون

وطلابٌ وعاطلون عن العمل يعيشون على حساب أهاليهم ويشدهم بريق الموضة والهواتف النقّالة، جميعهم نظيفون وأنيقون، لا يرتدي أحدٌ منهم كنزةً ذات قلنسوة قذرةً ورائحة نتنة.

يتردد بما يفعل هل ينزع هذه الكنزة الحمراء ويلفها حول خصره متفاخراً بصدرٍ عارٍ أم يظلُّ محرجاً من الروائح العفنة للدواجن الميتة التي تفوحُ منه؟

عادةً ما ترافق هذه الرائحة ياسين الظريف ذي الشعر الأشقر، لم يكن يمانع أي شخص يريده حتى لقبوه «الكراج» حيث لكل سيارة مكان.

تمنى جمعة أن يلتقي بياسين الصغير المخنث جامع الريش، تساءل في سرِّه كيف له أن يواجه الحراس الشرسين ذوي الزي الأسود، ما كان عليه أن يتأثر بغيره إذ لطالما رغب بأن يدخل الفرح في قلوب الآخرين فما قال «كلا» لأحدٍ أبداً.

رغبَ جمعة جداً بالعثور عليه رغم أن شيئاً ما في داخله يقول له أن مصيبةً ما حلَّت بصديقه لعله وقع ضحيةً للمدافعين عن الحزب لهم وليمةً فظَّة أو لعل نجمه أفل إلى الأبد. هذا الصبي من الزقاق نفسه الذي عرفه منذ نعومة أظفاره فهما بنفس العُمر تقريباً، كم سبرا المزابل العامة ليفتشوا عن بقايا طعامٍ يقتاتون به! كم وجدا نفسيهما محتجزين في سجن الشرطة من دون سبب فقط بسبب شكلهما! كم انهالوا عليهما بالضرب لأن القانون لا يسمح لأحدٍ أن يعيش بالأزقة، ولأنهما دون أهلٍ ولا أوراق ثبوتية ولا سند يلجئون إليه هرباً من الظلم!

تبنى شحاذٌ ضريرٌ طاعنٌ بالسن ياسين عندما أصبح بعمر الخامسة أو السادسة، كان يدعى فاروق فهو مثل ملوك الأيام الخوالي يعتمر طربوشاً محدباً من أحد الجهات وقد غيرّت لونه الشمس، لكنه لا يفارقه أبداً.

اختار فاروق لنفسه مكاناً في أحد أزقة الحي السفلي حيث يتربع على طينٍ مجبولٍ على الأرض ويبدأ بتلاوة القرآن الكريم من الصباح

حتى المساء مما فرض احترامه على الكثير من المارَّة الذين يمنحوه بعض المال.

قدَّم فاروق الطعام والمأوى لياسين لعامٍ ونيف تقريباً إلى أن افتقده الموت، لكنَّه بقي حيّاً في ذاكرة ياسين وعلَّمه الكرم، فهو الرجل الذي أعطى كل ما يملك ليرد عن هذا اليتيم الصغير الجوع حتى أصبح الكرم الطائي إحدى سمات ياسين بالإضافة للرائحة النتنة التي تشبَّع بها، رائحة الريش المبتل الذي يجمعه خدمةً لسمير.

كان ياسين يُطعم ما يقتات به إذا ما لاقى جائعاً أمامه كما كان يوزع ما يُقدم له من أعطيات. كرمه هذا تضافر من الرائحة النتنة التي تميزه فجرت عليه سحابةٌ من السخرية لئلا يهدي عُطره لأحد وأنه الدجاجة المضيافة بل العَجُز المضياف، مما يُضحك ياسين كثيراً فهو على يقينٍ أنه سيظلُّ محبوباً ولو تحوَّل إلى دجاجة.

ينزل ركاب القطارات في محطة ناصر بعد أن أغلقت الشرطة محطة السادات التابعة لساحة التحرير. ركدَ الغاز المسيل للدموع في أروقة المحطة مما جعل جمعة يبكي فالتجأ للخارج حيث يمكنه الاستنشاق بشكلٍ أفضل رغم الحشود الصارخة المتكدسة عند زاوية شارع 26 تموز وشارع رمسيس.

صفوفٌ من شرطة مكافحة الشغب سدت الطريق إلى التحرير أمام هذه الحشود التي لم تتردد باحتقارهم ملوِّحين بلافتاتٍ وراياتٍ صغيرة رغم أنوفهم.

أما باقي الاتجاهات فالطريق إليها مفتوح، نحو محطة رمسيس في الشمال والكورنيش غرباً يعبرون حي «البلاق» بأزقته القروية المحاطة بالأبراج إلى قصر العدل شرقاً. كل هذه المساحة كانت سوداء من كثرة الناس الثائرة بشعاراتٍ تصمُّ الآذان. دُهش جمعة بكثرة الفتيات سواء كنَّ محجباتٍ أم سفور، إذ خلعن فجأة رداء الحشمة المفروض عليهن وها هن

يتحركنً بحماسٍ بين الفتيان. ربما يتسنى له الاقترابُ منهن ومخاطبتهن والابتسام لهن، لعل بوسعه أن يوقعهن بشباكه، لكنه لم يجرؤ.

ترى هل تغير الثورة حياة الفتية المساكين الذي يُحرمون من المتعة مع النساء حتى يقاربون الثلاثين من العمر؟ هل ستتيح له مثلاً أن يضاجع فتاةً ما حلم قط بلمسها، إحدى المومسات القذرات اللواتي يهبن أنفسهن مقابل حفنةٍ من المال في أحد الأكواخ القذرة ولكن مع فتاةٍ يضاهي جمالها جمال نعيمةً بائعة الأحذية أم فطمة أخت عزيز عامل الرصاص.ربما يكن نساءً مومسات عازبات نعم ولكنهن شاباتٍ وجميلاتٍ ونظيفاتٍ وبالمجان كما في الجنة.

تأمّل جمعة هذه الجموع الغفيرة وقال في سره: لن يتمكن أحدٌ من قهر عشرات آلاف الرجال والنساء والأطفال الغاضبين، لابدٌ أنهم سيظفرون بالنصر، إلا إذا رمتهم الدبابات بالمدافع أو فجرتهم الهيلوكبترات براجمات الصواريخ، ستنهض غداً مصر برمتها وترتفع الشعارات والأعلام ذاتها.

حتى لو انتشل الموت كل من تراهم عيناه في هذا الشارع فلا بد أن يحل محلهم ملايين غيرهم يتحلون بالقوة والشجاعة نفسها والغضب عينه.

إنه على ثقةٍ بأنهم قد انتصروا، سرت رعشةُ نصرٍ في جسده وغمرته موجةٌ من الفرح جعلته يتمايل راقصاً غير آبهٍ برهط الكلاب ذوي الخوذ، أولئك الفظين ذوي النظرات الفارغة وهم غارقون بنظامهم والحقد الذي يضمروه لدرجة أن لا تأخذك بهم الشفقة، فهم وحوشٌ بائسون جنّدهم الشر لأمره وما وجدوا سبيلاً للعيش بعيداً عنه.

أخذته نشوة الحرية فنزع قميصه، ما لم يجرؤ على فعله هناك في المترو، واقترب بصدرٍ عارٍ من أولئك المساكين أسيري الأوامر الصادرة والأسلحة الفتّاكة والدروع الواقية المرعبة التي حاولوا أن يواجهوا بها شعباً ثائراً منتفضاً.

اقترب منهم بصدره العاري والتحدي يرفرف فوق رأسه كرايةٍ تنثر في الفضاء الحروف التي كُتبت عليها، غير آبهٍ بما قد يثير من رغبةٍ بالعنف.

في هذه اللحظة أُفلتت الكلاب، ربما بما أثارت حريته من غيظ أم بسبب الحجارة التي بدأت تنهال على دروعهم؟

ركض جمعة بسرعةٍ هائلةٍ فما تمكنوا من اللحاق به بيد أنه ميَّز بوضوحٍ وسط هذه الجلبةِ والصراخ أصواتاً يعرفها حق المعرفة صدىً لضرباتٍ تنهال بالمطرقة على جسدٍ أو رأسٍ. ما إن توقف هذا الضجيج المصمُّ حتى عاد أدراجه ليرى عدداً من الفرائس جرحى تسيل دمائهم لعلهم قد لفظوا أنفاسهم الأخيرة فينقض عليهم المتوحشون ذوو الزي الأسود ويسحلوهم إلى سيارات الشرطة.

أعادت الشرطة تشكيل صفوفها من جديد وبدؤوا بإطلاق القنابل المسيلة للدموع لأن حشود المتظاهرين ما تبعثروا بعد احتدام العنف لا بل استشاط غضبهم.

غابت الحشود في الغيوم الدخانية وتدافعوا لإخلاء التقاطع نحو الاتجاهات الثلاثة المتاحة، والنار تلتهب في أعينهم وحلوقهم. ركض جمعة مع المجموعة التي سلكت اتجاه شارع 26 حزيران إلى حي البُلاق ثم الكورنيش. تسلل بين السيارات المصطفة تحت الجسر وقفز فوق الشوارع المزفتة، محلّقاً بحذاءٍ مريحٍ ينتعله ورايته ما زالت ترفرف عالياً وحنجرته تصدح بما يردد الحشد من شعارات تلتهب تحت سعير الشمس وربما لن تغيب حتى تحت جنح الليل. لن يتركهم جمعة إلا إذا ظهر ياسين. كم يأمل برؤيته ينبثق بين الجموع! ها هو يلّوح بعلمه الأحمر دون توقف علّه يلاقيه فيثأرا معاً من ذوي الرداء الأسود.

اجتاح مئاتٌ من المتظاهرين الكورنيش محاولةً منهم للوصول إلى ميدان التحرير حيث وجدوا أنفسهم محاصرين. اقتحمت إحدى المجموعات مبنى وزارة الخارجية وانتزعوا الشبك من المبنى الذي بدا مهجوراً.

جلس جمعة على الحاجز المطل على نهر النيل وتفحّص وجوه المتظاهرين الذين شكلوا حلقةً دائريةً كبيرة حيث يأتي البعض ويغادر الآخر بوجوهٍ ملثمة وبأيديهم حجارةٌ قويةٌ، بحث في وجوههم عن ياسين آملاً بلقائه!

جلس بجواره أحد شبان «الفيس بوك» الذي ما فارقت عيناه شاشة الجوال، يستقبل رسائلاً ويجيب بسرعةٍ عليها وهو يعزف بمهارة على أزرار الجوال.

كم حسده على جواله وعلى براعته في القراءة والكتابة!

رن جواله فأجاب سائلاً: «أين أنت؟» ثم نهض ونظر باتجاه الشمال وقال «إنني لا أراك» وتابع: «أنا أقف أمام الوزارة تماماً، متكئاً على الحاجز».

بعد برهةٍ، أقبل فتىً آخر لاهثاً مبتسماً وبيده جواله، يرتدي كنزة سوداء حسب صيحات الموضة وقد رُسم عليها وجه إحدى النجمات الأوروبيات لكنِ جمعة لم يتعرف عليها، ربط حول خصره قميصاً أزرقَ اللون.

قال جمعة في سرِّه: يبدو كل شيء بالنسبة لهم بسيطاً. هذا الجوال يفعل العجائب لو كان مع ياسين جوالاً لعثر عليه «بشحمه ولحمه» لا طيفاً فقط يسأله:

- أين أنت؟.....

أجاب نيكولا لاهثاً: - إنني في المنزل، استمع لـ«Skrillex» أعلم أنه سخيف لكنه يشجعني على القيام ببعض الحركات وأنا فعلاً بحاجة للحركة.

- إذا هيا تحرك إلى الحديقة العامة.

لم يكن نيكولا يرغب بالمجيء إلى الحديقة فهو ينتظر «إيمان»

ليجريان معاً بحثاً في الجغرافيا حول التحولات الطارئة على محيط المدن الكبرى في البلدان النامية، فليس لديه أدنى فكرة حول هذا الموضوع وما وجد ببحثه على «Google» أي معلومة لذلك فهو يعتمد تماماً على إيمان، كما أنهما قد يعبران معاً إلى أشياء أخرى.

لعل في العبور إلى أشياء أخرى إلى عالمٍ آخر أكثر كثافةً لحدود المكان والزمان المترامية ليضاهي شقاء العيش حيث يدفع الملل دوماً لاختراعاتٍ جديدة بالأشياء والمشاعر مثل الحلم الهندي الذي يمارسه في إحدى زوايا الحدائق العامة برفقة نيكولا.

لو تخيل ناتان للحظة أن يجد نفسه وحيداً في الحديقة العامة دون صديقه المفضل لما كان ليأتي أبداً، إلا أنها المرة الأولى التي يتركه فيها من أجل فتاة.

لم يعد نيكولا ذاك الفتى الصغير ممتلئ الوجه الذي يخفي خلف ستارٍ من الظرافة وحسن المزاج ما يسببه له تأخر النمو من جراح، إذا طرأ عليه تحولٌ كبيرٌ بعد العطلة مما دفع الجميع لتبادل المزاح يوم العودة إلى المدرسة عن نيكولا الذي نما وأصبح بالغاً الآن.

يعبرُ ناتان جسر الذكريات ليلاقي الزمان الماضي حيث كان هو ونيكولا يمثلان أدواراً: هو «نادال» ونيكولا «فيديرر» لينتابه الشعور بسخافة هذه الأدوار مهما كانت منطقية، كم أمضوا أوقاتاً في ملعب الأطفال في هذه الحديقة التي ترعرعا فيها وسبرا زواياها حتى الصغيرة منها، وخبرا أسرار نباتاتها التي يجهلون أسماءها تماماً.

إنه يوم الأربعاء وها هي أصوات الأطفال تصدح بالمكان ولكن اليوم لم تكن أصواتهم بين هذه الضجة. اقترب ناتان من ملعب الأطفال الذي تحول منذ برهةٍ من الزمن إلى غابةٍ حيث يتسلق عشراتٌ من ماوكلي وتارزان وبالو وباغيرا جذوعَ الأشجار وسط صخبٍ طفولي ليتجمعوا في كوخٍ جاثمٍ على قمة الشجر و يلوذوا بالفِرار من شيريخيان القادم من خلف

الزلاقات التي لها شكل كلب صيدٍ ذهبي اللون. إنهم يرسمون خططاً للدفاع فبعضهم يلوذ بالفرار والبعض يخطط لإيقاع النمر الشرير حياً في شرك فخٍ يصنعه لينزلوا به كل أنواع العذاب التي يستحقها.

جلس ناتان على الرمل الذي بدا له نظيفاً ليتأمل هؤلاء الأطفال الذين يحلّقون في مملكتهم بعيداً عن الواقع من دون عناء، قال في سره: حقاً إن المرء يعد في عداد الموتى حين يعاني الحرمان من أحلام اليقظة التي تعبر به إلى اللا نهاية إلى عالمٍ آخر مختلف. إنه كمن وقع في براثن شبكة العنكبوت، أسيراً للموت الذي يقترب منه بخطىً واثقة وهو يحاول دون جدوى تجاهل تخبطه كذبابة لاجئاً لحيلٍ سخيفة مأساوية مؤلمة في كثير من الأحيان، حيلاً كالحب والجنس والمال وآخر ما توصلت إليه الحداثة من بضائع، وكل العلاجات الأخرى غير ناجعة عدا الدين، ذاك الجنون الذي يخدرك في مواجهة هذا الواقع المرضي بحقنةٍ من الأمل الأحمق حول حياةٍ حقيقة في الجنة بعد الموت.

لاحظ أن الأمهات يحدجنه بنظرةٍ مليئةٍ بالشك فآثر الرحيل. يبدو له الوقت المتبقي من بعد الظهيرة لا نهايةً له، ماذا بوسعه أن يفعل، أخذ يوازن المسؤوليات المتاحة له: عادةً ما يلتقي بمانون يوم الأربعاء ولكنه و بعد مرور نصف ساعة يرغب بالمغادرة.

فكر بالمسبح لكن مؤخراً أصابته حساسيةٌ من الكلور. هل يعود إلى المنزل؟ لكن اليوم لويز تقوم بتنظيف المنزل وبالتالي ستنهال عليه سلسلةٌ من «لكن» تلقي على كاهله أطناناً من الملل أكثر سوءً من البقاء جالساً على أحد مقاعد الحديقة العامة لمراقبة زوبعة الأوراق الخريفية المتساقطة، فتراءى له الموت يحمله هكذا كالهواء إلى الدوار الأخير، إلى النشوة الأخيرة.

راودته فكرة الحلم الهندي مع كلمتي الدوار والنشوة، ما مارس قط ذلك وحده، فلابد من وجود أحدٍ إلى جواره لئلا يسقط أرضاً وليضمن استيقاظه تماماً، إلا أن نيكولا لم يكن هنا وما وجد من يحل محله.

فاستسلم للريح، إنها تجربةٌ مثيرةٌ حقاً فهو الآن لا يضمن سلامته لذلك سيبقى في بداية الملعب، سيتوارى خلف السياج حيث يتوارى عادةً مع نيكولا وبقية اللاعبين. إنها المرة الأولى التي يختنق فيها نفسه وحيداً في العراء صباح يوم أربعاء حيث تعجُ الحديقة بالأطفال.

بحث خلف السياج عن بقعة عشب فيبعد عنه الأذى إذا ما طُرح أرضاً حين يفقد وعيه، جلس القرفصاء وتحقق أن ما من أحدٍ يقترب نحوه، علّق العداد الزمني وفصل شبكة الانترنت من جواله «الذكي».

بدأ بدورانه السريع جداً يتسارع أكثر فأكثر حتى 30 ثانية، نهض بشكلٍ مفاجئ وحبس أنفاسه، رأى وجه والدته في نورٍ مائلٍ للزرقة نثره الفجر على المكان، كانت تجلس على كرسيٍ من السّوحر(*) في منزلهم في «سافيني».

سرت في جسده فرحةٌ عارمة حين تكلمت ليس بسبب معنى الكلمات التي لم يصغِ إليها وإنما طرِب بشذى صوتها الذي تعرف عليه، استعاده غير آبهٍ بالنسيان الذي ابتلعه منذ زمن. حان الآن دوره بالكلام لا بل سالت الجمل من فمه بسيلٍ غير منتهٍ دون كلماتٍ ودون قصدٍ تعنيه.

حوارٌ لا نهاية له عن رغبتها بأن يدخل الحمام. رأى أنه أصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليغتسل بمفرده؛ فقالت أنها ستكتفي بغسل شعره «بالشامبو» وفرك ظهره، طالما استمتع بدغدغتها وطالما استسلم لفرحه بها وهي تمسده لتجففه بعد الحمام ولكن للأسف ماء كولونيا 4711 فارغة، فبدأت والدته بالضحك...

فتح عينيه بنور النهار المبهر فشعر بثقل جسده على عشب المرج و ألمٍ في ساقه اليمنى المثنية فمددها رويداً رويداً وبقي جالساً حتى استعاد توازنه وهو يبحث عن جواله ليعرف كم استغرق الحلم الهندي من وقتٍ، لم يتجاوز بالتأكيد خمس ثوانٍ حسب حساباته.

(*) السّوحر: نوعٌ من الصفصاف تصنع من أغصانه السلال.

إنها المرة الأولى التي يحمله فيها الحلم الهندي لفلم كاملٍ فها هو رنين ضحكتها وصدى صوتها يطرق ذاكرته بعنف بكل تفاصيله كما لو أنه مقطع فيديو لطفولته في السادسة يكرره مئات المرات، ولكنه لم يكرره منذ زمنٍ طويل لابد أن يتحقق من الأمر.نعم سيطرح مساء اليوم السؤال على والده، سيسأله عن الدغدغة وعن ماء كولونيا 4711 التي رأى علبتها بتفاصيلها لكنها لم ترتبط معه بأي ذكرى مع والدته.

ربما سيتمكن من إثبات أن المستوى الأول للحلم الهندي يحرض صوراً طواها النسيان في جعبته بموهبته الفاتنة التي يوجز بفضلها صوراً وأصواتاً ومشاعراً في مشاهد لا تتجاوز ثلاث ثوانٍ في حين أنها تتطلب بالحقيقة ما يزيد عن ثلاث دقائق، كما لو أنه يقول نوعٌ من العبارات السحرية مثل «افتح يا سمسم» ليدخلَ إلى مملكةٍ مبهرةٍ من الكنوز الضائعة.

ما كان ناتان يستسيغ طعم الذكريات وليس ممن يبحرون في الزمان الغابر ومع ذلك لو أثبت أن هذا السحر يكشف أسرار الأيام فلن يقاوم رغبته بما يظهره المستوى الثاني من الحلم أي بعد الخنق الذي ينفخه على بساطٍ طائرٍ لا مرساة له في سماءٍ مجهولةٍ.

رغب بمعرفة إذا ما كان المستوى الأول يحمل كلاً من نيكولا وجوستين إلى عالمٍ غريب، أعاد الاتصال لجواله لترده للتو رسالتين الأولى كانت من مانون فهي قلقةٌ من أجله وما الذي أخره عن موعدهما المضروب في هذه الساعة كما في كل يوم أربعاء. أما الثانية فكانت من «راف» الذي يرغب برؤيته في مكانٍ ما «في منزلك أو في منزلي مثلاً». فلم يجب ناتان عليهما بل قام بطلب رقم نيكولا الذي أجاب بقليلٍ من الفظاظة إذ لابد أن إيمان بجانبه: كلا خلال الحلم الهندي لا يراوده سوى شعورٍ بانعدام الجاذبية كما لو أنه يتنفس تحت الماء أما في المرة الأخرى فقد رأى وميضاً ضارياً للزرقة وتناهى لمسامعه كلماتٌ مبهمة إنه يجد الأمر سخيفاً وصبياني ولن يكرره البتة.

بعد برهة، طلب رقم جوستين التي عزمت هي الأخرى على التوقف عن هذه اللعبة للخطر الذي يحفها، فمازحته بسؤاله إن كان يجري تحقيقاً لجريدة المدرسة ثم قالت أنها ما شعرت سوى بشعورٍ عارمٍ من الرفاهية وأنها ما سمعت ولا رأت شيئاً.

لكل عقلٍ طريقته بالتعاطي مع الأمور، ربما عقله مترعٌ وغنيٌ يمكنه النهل من ثرواته. حياته الحقيقية هناك على الجانب الآخر لخيال الأشجار المتكئة على السياج ذي العُقد تغطيه تلك السماء الزرقاء وتداعبه رائحة العشب وصرخات الأطفال وهم ينكبون على اللعب حتى يبتعدون عن الواقع ويتخلون عن الحقيقة، صرخات الأطفال تلك التي طالما ألفها.

أخذ الاتجاه الذي يصل به إلى منزل مانون وهو يفكر أنه سيتابع بالحلم وحده فمن الآن وصاعداً لا أحد من أصدقائه يرغب بهذه اللعبة، سيبقى الأمر سراً لن يبوح به لأحدٍ وخاصة لمانون.

لاح وجهها سعيداً عندما شقت الباب، سحبته إلى غرفتها وهي تكيله باللوم على تأخيره وعلى عدم الرد على رسالتها، أرادت ممارسة الحب فوراً فهي جاهزةٌ، لم يكن يغطي جسدها سوى فستانٌ من الكتان أزرق اللون بأزرارٍ بلون حدائق النيل، يفوحُ منها عبق العطر الذي أهداها إياه بعد الاستحمام. حينها تساءل ماذا تهديه مصر غير هذه الرائحة الفواحة للأزهار القادمة من النيل العظيم، ذاك الشذى الذي يغفو بدلالٍ على جسد مانون الشفاف ليعطر الثلم الدقيق المرسوم على بشرتها بشذىً لطيف يشبه المانغا...

ماذا لو ذهب إلى مصر ليرى أزهار النيل حقاً...

تسير مع مجرى النهر حتى تعانق البحر، لطالما حلم جمعة أن يتبع ياقوتات الماء هذه ليرى كيف يسحبهم التيار لأحضانه. هذه الرغبة تتأجج في حر الصيف المرهق فيشجعه على السباحة بين أزهار النيل العظيم أو بالأحرى بالقرب من قاعة الصلاة أو تحت قناةٍ محفورةٍ لبناءٍ مهملٍ.

برفقة رجب والكثيرين، يقطع حدود السكة الحديدية والكورنيش ثم يبحثون عن ضفة خاليةٍ من القصب ليقتربوا ما أمكن من الماء العذب وينتعشون به. أحياناً عندما لا يكون بحوزته صابونٌ للاغتسال يطلب من غيره بإلحاح. يسأم في بعض الأحيان ويرغب بتغيير الأفق فيسير نحو الشمال إلى القناة القديمة «سور مجرى العيون» التي كانت تحمل قديماً ماء النهر إلى قلعة صلاح الدين. أسفل القناة هناك رصيفٌ حجريٌ طاعنٌ بالقدم لكنه مازال يحتفظ بشكله حيث يقف الصبية عليه ويرمون بأنفسهم للغوص منه قبل أن يرتقوا الأدراج التي انهار قسمٌ منها.

يتوافد السباحون الشباب من كل الأحياء المجاورة، من السيدة زينب وحتى من أقباط مارجرجس. وقد يتكدس العشرات على الرصيف ليغتسلوا بالصابون وينظفوا إخوتهم الصغار ويفركوا ظهر أحدِ أصدقائهم وربما ليغسلوا ملابسهم أيضاً.

للأسف فقد هذا الحمام في العراء رونقه وروّاده منذ عدة سنوات لأن شرطة النهر باتت تنقض بفلكٍ ذات محركات على السباحين وعلّقوا بعضاً منهم بالكلابات، تنفيذاً للأوامر، ليكونوا عبرةً للغير، لا خوفاً على هؤلاء الفتية المساكين من الغرق، بل لعلهم يتمنونه، وإنما لإيقاف مشهد البؤس هذا أمام أنظار السياح الذين يتوافدون لتصوير القناة بعد ترميمها.

مازالت ياقوتات الماء تطفو بسلامٍ. في يوم الحرب هذا، وتهتز بموجاتٍ خفيفةٍ جداً تذريها الريح وتدنو نحو البحر غير آبهةٍ بجلبةٍ بالكاد يسمعها آتيةً من الكورنيش وجوقاتٌ لآلاف المتظاهرين تصدح بنفس الشعارات.

بعد مرور بضع دقائق، بحث الفتى ذو القميص الأسود والجوال عن مكانٍ له على السياج بجانب صديقه، فأفسح له جمعة مكاناً، جلس الفتى وبعد برهةٍ بدأ يحدجه بنظرةٍ مقززةٍ ويزدريه من رأسه حتى

أخمص قدميه، فهم جمعة أنه يجول بناظريه بحثاً عن مصدر الرائحة النتنة المنبعثة من سترته التي خلعها منذ قليل، فنهض في الحال وحاذى السياج بحثاً عن مدخلٍ إلى ضفة النهر حيث يجري النيل بسلام كما هو دائماً وكأن شيئاً لم يتغير، غير آبهٍ بالهياج الشعبي الذي لا يبعد عنه سوى مترين.

توجس جمعة خيفةً بأن يبقى كل شيء على حاله على ضفاف النيل مثل ياقوتيات الماء هذه ويبقى الفقراء يجترون بؤسهم ويكابدون ضيق العيش. فكرةٌ سريعةٌ ساورته ثم حلقت مع أول نسمةِ هواءٍ باردةٍ لفحته وهو يدعك سترته في مياه النيل. غمرها بالماء وعصرها عدة مرات حتى حلت الرائحة الترابية التي لا تخلو من الرائحة الواخزة للطين حيث تغرز ساقاه، محل الرائحة النتنة للريش.

لفته صوتٌ يناديه من الكورنيش وهو يرتدي سترته الرطبة، نعم إنه صوت ياسين لقد ميزه رغم الصخب والضوضاء المتضافرة في المكان، يكاد لا يصدق، حقاً، هذا ياسين، إنه يلمح خياله وشعره الفاتح، ها هو يلوِّح له.

يا الله! هناك لحظاتٌ تُفتح بها أبواب السماء فيهبط منها ما يشتهي جمعة بالضبط لا بل كنوزاً غير متوقعة تقلب حياته لأيامٍ عدة، كغطاءٍ مرميٍ في النفايات في ليلةٍ شتويةٍ قارصة أو طعامٍ سليمٍ مرميٍ خطأً. أحياناً يرقصُ فرحاً ويصرخُ لبخشيشٍ دسته له سيدة عجوز حمل لها بضائعها. وبعد أن تطول متعته ويرتمي بأحضان هذه الهبة السماوية يقولُ في سره أن عليه الاعتقاد بوجود ربٍ واحدٍ لهذه الحياة. لتنهال عليه في اليوم التالي مصائب تذكره أن السماء بنهايةِ المطاف ليست كريمةً إلى هذا الحد.

جاء ياسين إلى ضفة النهر وتعانقا عناقاً طويلاً وقهقها بصوتٍ عالٍ سعداء بلقائهما هنا بين كل هؤلاء «الفيس بوك» الذين لا يعرفون أحداً منهم ثم تعانقا مجدداً. لم يستطع ياسين والظمأ ينهش حلقه أن يقاوم مياه

النيل فغمر يده بالماء كما لو أنها فنجانٌ ورشف القليل من مائه رغم علمه بأنها غير صالحة للشرب. ثم بدأا يسردان ما جرى خلال الأمسية الماضية:

دورة جمع الريش تبدأ في السابعة مساءً لذا كان أمام ياسين متسعٌ من الوقت لمشاهدة التلفاز عندما أقبل حسان «الميكانيكي» واقترح أن يصطحبه إلى مركز المدينة.

شرح له حسان أن اليوم هو يومٌ عظيمٌ إنه «يوم الغضب» وقد حُدد هذا اليوم لأنه يصادف عيد الشرطة، قال له بأن آلاف الناس سيتوافدون إلى ميدان التحرير مطالبين بالعدالة والحرية، كما أنه لا يرغب بالذهاب بمفرده ومن المجدي أن يرافقه. توجس خيفةً في البداية ولكنه أراد أن يدخل الفرح لقلب حسان، صاحبه، لذلك قرر مرافقته.

استقلا المترو ونزلا في محطة سعد زغلول ثم تابعا طريقهما إلى ميدان التحرير سيراً على الأقدام سالكين الأزقة ليتفادوا الشغب وهكذا اندسا بين الجموع حتى وصلا ميدان التحرير.

ما رأى ياسين قط هذا الحشد الهائل من الناس، أناسٌ غاضبون يتتالون حاملين أعلاماً ويرفعون معاصمهم ويصدحون دون توقف «خبز. حرية. عدالة» يكررونها باستمرار حتى عندما وجدوا أنفسهم رويداً رويداً محاطين بصفوفٍ من شرطة مكافحة الشغب.

توقع ياسين أن ينفضَّ قسمٌ هائلٌ من الجموع ويُضرب من هم أكثر شجاعة بالعصي والمطارق ويدكون في السجن كالعادة. لكن ما جرى كان مختلفاً تماماً، فهنا ما غادر أحد بل بدؤوا بمهاجمة الشرطة، إنه لأمرٌ يفوق الخيال!

التقط الناس الحجارة المبعثرة في ميدان هيلتون النيل وقطعاً من الزفت المكسور ورموا بها على رجال الشرطة، ثم اقتربوا منهم أكثر، لم يكن الخوف يساورهم، رجموهم كالكلاب وتراجع رجال الشرطة كالكلاب المذعورة.

نعم، لقد كان مشهداً يفوق المنطق. بدأ الناس يصرخون فرحاً تتقهقر الكلاب رويداً رويداً لتتسع ساحة الغضب الشعبي. توافد الناس إلى الميدان من كل مكان، من جسر قصر النيل، وشارع رامسيس حتى غصَّ الميدان وهدرت اللافتات والأعلام دون هوادة.

أرخى الليل سدوله على الميدان لكن الناس لم تبرح المكان بل صدوا الغاز المسيل للدموع ليرموا به رجال الشرطة.

تسلّق أحد الشبان أحد المصابيح التي تنير الميدان ومزّق صورةً كبيرة كانت في الأعلى «صورة لقائد اللصوص» وصرخ الجمع ومعهم ياسين: «ارحل يا مبارك. الشعب يريد تغيير النظام».

فقد ياسين حسّان في غضون هذه البلبلة وما تطلبته من ركضٍ في اتجاهاتٍ عدة، بحث عنه في كل مكان إلا أنه لم يره مجدداً.

كان قد أخبر سمير بأنه سيعود قبل السابعة مساءً من أجل جولة جمع الريش، ولكنه نسي الأمر تماماً وعندما خطر بباله كان الوقت قد تأخر جداً، خشي أن يعود عندها سيذبحه سمير لا محالة.

تسكع الناس، عند هبوط الليل، في الساحة المُضاءة بالمصابيح، يتناهى لمسامعهم صفارات لا يعرفون مصدرها. انضم ياسين إلى مجموعةٍ من الشباب جلسوا بشكلٍ دائري على المرج مقابل مبنى «موغاما»، جميعهم من مشجعي فريق الزمالك و مشجعي الفرق التراس وايت نايتس Ultras White Knights. أخبرهم أنه من دار السلام وهناك يفضل كل الناس فريق الزمالك على الأهلي، فقبلوه بينهم وقدموا له قطعاً من البسكويت ليتناولها.

جافى النوم أحداقهم خشية أن يباغتهم رجال الشرطة لإخلاء الساحة أما ياسين فتمدد على المرج وتوسد فخذ أحد الشاذين وهو شابٌ وسيمٌ عريض المنكبين ظل يداعب شعره حتى غفا، في صباح اليوم التالي دعه أحدٌ ما ليوقظه، لم يبرح الحشد المكان لا في الساحة ولا على المرج.

ولكن أقبلت نحوهم عشرات الشاحنات المجهزة بمدافع مائية من شارع القصر العيني وبدؤوا ينظفون الساحة بفوهات الخراطيم.

هرب هو وأصدقائه «فريق الزمالك» إلا أنهم فوجئوا برجال الشرطة عند جسر 6 أكتوبر أعلى الساحة وهم يرمون قنابل مسيلة للدموع وطلقات مطاطية، فما كان منهم سوى الانتشار في أزقة «البلاق» الصغيرة، هرعوا مع آلاف من الناس وسلكوا كل الاتجاهات حاملين نفس الرايات ويصدحون بذات الشعارات. لم يغادر أحد المكان لا بل توافد الناس دون توقف إلى الساحة.

فقدَ أثر « مشجعي الفرق: التراس وايت نايتس Ultras White Knights » وهو الآن يتقفى أثرهم علّه يتخلص من هذا الشغب ويعود مجدداً إلى ساحة التحرير، ربما يحالفه الحظ ويحظى بحسان.

كان ياسين على استعداد ليقاتل هنا لأيام وأيام حتى ولو أطلقت الشرطة رصاصاً حقيقياً، إلا أنه يتضور جوعاً ويأمل برؤية «حسان» صاحبه، عسى أن يعطه المال ليسد الرمق بطعامٍ ما .

سحب ياسين بينما كان يروي قصته علماً ثلاثي الألوان من جيب سترته وثناه حتى حوله إلى عصبةٍ وعقدها حول رأسه. بالكاد تعرف جمعة على دجاجة دار السلام فهو الآن أمام ثائرٍ حقيقي محاربٍ حقيقي، شعر بالفخر أنهما معاً بين جموع المتظاهرين الذين لحقوا على الكورنيش أمام الوزارة.

ركض ياسين إلى الأمام فتبعه جمعة، ثم تسلل بين الحشد الكبير حتى وصل الصفوف الأولى بالضبط أمام مبنى «تلفزيون ماسبيرو»، حيث كان عشرات المغامرين قد كسروا الحاجز، ليتدججوا بالحجارة ويتحول الشغب إلى شغبٍ مسلحٍ بالحجارة..

استشاط رجال الشرطة غضباً وهم خلف دروعهم الشفافة بالكاد يدرؤون عنهم الحجارة التي تنهال عليهم من صفوف المتظاهرين خلفهم، التقط ياسين بدوره حجرين واقترب منهم، ويلمح البصر وبهذه اللحظة

بالذات انبثقت سيارةٌ مسرعةً من الشارع المحاذي لمبنى التلفزيون و انقضت على رماة الحجارة، لم تكن سيارةً عادية بل سيارة شرطة مصفحة تابعة لمكافحة الشغب وهي تنطلق بسرعة 100 كم بالساعة واتجهت مباشرةً نحو ياسين وكأنها تقصده هو بعينه لا أحد سواه، ربما لفت انتباههم العلم المعقود على شعره الأشقر أو ربما لأنه الأصغر عمراً أو الأكثر وسامةً أو الأكثر قرفاً.

ما انفك جمعة عن التمحيص بتلك الحادثة رغم مرور الأيام ولكن بتلك اللحظة اكتفى بالصراخ فاستدار ياسين نحوه عندها صدمته سيارة الشرطة ثم لاذت بالفرار بعد أن أفسح رجال الشرطة لها المجال.

لم يتوقف جمعة عن الصراخ وهو يرى جسد ياسين يرتفع في الهواء ويهوي كلعبةٍ ثقيلةٍ مفككةٍ على أحد المقاعد الحجرية في الكورنيش حيث نُسجت منذ يومين فقط أجمل لقاءات عشقٍ.

هرع جمعة نحوه وضمه في أحضانه، كان ياسين ينتفض وعيناه مفتوحتين والدماء تسيل من شعره، حمله جمعة، كان لابد من اصطحابه إلى أقرب مستشفى، احتار جمعة بأمره فهو لا يدري أين ولا كيف؟ فجال بناظريه باحثاً عن نجدةٍ عندما رأى المتظاهرين يتوافدون نحوه ثم سحبوه إلى شارع التلفزيون و ركضوا نحو شارع 26 حزيران.

تثاقل جسد ياسين في أحضانه ورأسه المتدلي يهتزُّ مع الركض، حمله أحد الرجال عندما أُرهق جمعة وركض عابراً حي البلاق حتى وصل شارع رمسيس حيث أوقف أول سيارة تعبر.

جلس جمعة في المقعد الخلفي وسحب نحوه ياسين واضعاً رأسه على رجليه أما الرجل فثنى رجلي ياسين حتى يتمكن من إغلاق باب السيارة التي انطلقت لتوها.

أسبل ياسين جفنيه وهو يئنُّ ألماً والدم يسيل ويتضرج شعره ووجهه ورقبته. ناداه جمعة إلا أن ياسين لم يعد يسمعه لعله بات في عالمٍ آخر.

تساءل جمعة في سره لماذا يفارق ياسين الحياة بهذه السرعة؟ هل سيلفظ أنفاسه الأخيرة بعد تلك الفرحة العارمة التي ملأت قلبيهما بلقائهما؟ ولماذا؟ من أجل تغيير إلى محاربٍ؟ ستبقى تلك الدجاجة الكريمة قدوةً يحتذي بها الآخرون فيعلمون أن الكرم يصل إلى وهب الحياة...

التي يخالها وهميةً أمام واقعية الأحلام، لا شيء فيها يستحق العناء، لا شيء يمكنه كسر هذا الانطباع بوهمية كل ما حوله، رغم أنه يلمس ما يحيط به لكنه يشعر أنه فارغٌ كلياً بل يراوده دائماً إحساسٌ ببطلان كل المشاعر المفروضة عليه.

ما يلقي الرعب في قلب ناتان أكثر من ثقل خطوات الأيام ذات الإيقاع نفسه، هو الأمور الواقعية الطارئة المثيرة للبلبلة والتي تخلُّ بمجرى النهر الذي لا يأبه بشيء مثل تلك الرحلة المعلنة إلى مصر وإلحاح راف الذي يزداد أكثر فأكثر.

يقع فريسة الفخ بين الملل الذي تفرضه الأيام بابتذالها وتفاهتها وبين الخوف من المجهول، بدقة أكثر الخوف من بعض ما هو آتٍ، من بعض المخاوف القابعة في مخيلته والتي لا يعيرها غيره بالاً مثل والده: فهو يرتاب من هجوم بعض العصيّات الغريبة أو الفيروسات الدخيلة على جسده أو ذهنه، يخشى اقتحامها لعالمه العقيم، فهو يخشى أن تقتحم المضايقات الجسدية حياته بأمور أكثر وأقل إزعاجاً قادمة من ضفاف النيل، ويخشى من الإلحاح الذي لا يسأم منه «راف»، يخشى من تعدي العنف على سير حياته اليومية فهو لن يتجاوب مع عنفٍ مجبولٍ برغبةٍ مجنونةٍ إن حبه لمانون، إن كان هذا هو الحب، لا يتسبب له بأي إزعاجٍ فهو لا يتطلب منه الكثير ولا يجد صعوبة بمبادلتها هذا الحب، أما العلاقة مع «راف» فهي مثيرةٌ للقلق مثل ظهور بقعةٍ غير مفسرة على البشرة.

ما انفك «راف» يرسل له الرسائل وهو لا يجيب عليها فبعد أن

أرسل له: «في منزلك أو في منزلي مثلاً» أرسل له كذبةً «أريد فقط أن نلتقي» ثم حاول أن يمازحه ربما «تريد أن أموت؟» ثم بدأ يتوسل «نتحدث على الأقل».

وعندما باءت كل رسائله بالفشل انتقل إلى الاتصالات فها هو يطلب رقمه بإلحاح، ما بين كل مكالمتين يرن مرة، وفي المساء حين «هزّ» جواله كان أيضاً راف لكنه لم يجب وراف لم يترك رسالة.

إلى اليوم الذي استسلم ناتان لإلحاحه، يوم كسائر الأيام. تبخرت نغمات صوت والدته وصدى ضحكاتها في سماء «إيسي» أو في شوارعها أو ربما على فراش «مانون»، أضاع حلمه بوالدته الذي راوده مساءً في الحديقة العامة ومع ذلك فقد قرر أن يرى مقاطع الفيديو الخمس لطفولته والمحفوظة على حاسب والده، سيكررها على مرور ساعات رغم أنه يعرف كل صورها وأصواتها، لقد تعرف على كرسي السّوحر في حديقة «سافيني». إلا أن الصوت والضحكة يلقيان في نفسه الحيرة فهل هي الحقيقة مصورةً في «الفيديو» كما في الحلم؟ حرك هذا السؤال مشاعر ناتان لوقتٍ طويلٍ رغم أنه ليس بالأهميةَ التي تعطي الجواب، لكنه سؤال يخفي في جعبته تفاصيل جوهرية حول المعنى أو الثقة الذي يحملُه لبساطه الطائر في سمائه الفائتة.

طرح على والده السؤال عن «زجاجة ماء الكولونيا الغريبة» على أنه شاهدها في منامه، إلا أن والده ليس لديه أدنى فكرةً عن الأمر وهو لا يذكر شيئاً كهذا، لذلك قرر البحث ولو عبثاً عن مصدر هذه الصورة.

مرت بضعة أيام ليخبره بعدها والده أنه ما زال يحتفظ بأشرطة (DVD) تعود لأول كاميرا رقمية حصل عليها ولم يحمّل صورها على الحاسب فما كان لديه الشجاعة الكافية ليرى صوراً تعود لما قبل الحادث الأليم الذي قلب حياته ولكنه سيستجمع قواه.

الكاميرا قديمةٌ جداً ويجب البحث عن كابلاتها، لقد عثر عليها

موضوعة في علبةٍ أسفل خزانة جدارية، لعل بوسع ناتان رؤيتها بطريقةٍ أو بأخرى.

دوّن والده على أحد الأشرطة تاريخ «15/ 2/ 2003» وعلى الآخر «23/ 3/ 2003» العام «2003» هو العام المشؤوم الذي خطف والدته ربما في شهر شباط.

كان على ناتان الانتظار لأربعة أيام فلم تكن بطارية الكاميرا مشحونة، كما أن هناك بعض الإضافات المفقودة مثل بعض الكابلات وشاحن البطارية، بحثا عبثاً في كل مكان حتى أنهما لم يعثرا عليها في «شبكة الانترنت».

أما لمشكلة الشاحن فقد وافق والده على شراء بطاريةٍ جديدة، لن يتمكن إذاً من تحميل الصور على الحاسب لكنه سيراها على شاشة الكاميرا. وعد والده أن يشاركه رؤية الصور، وأوفى بوعده مساءَ يوم أربعاء حيث جهز كل شيء، أما لويز فقد تذرعت بزيارةٍ لإحدى صديقاتها لتخلي لهما المكان، جلسا على الكنبة في غرفة الضيوف. أمسك ناتان الكاميرا وضمه والده واضعاً يده حول كتفيه.

بدأا برؤية صور «15 شباط»، إنها صور لزفاف «إيريك وسوفي» الذين وقع بينهما الطلاق فوراً كما تذكر والده.

كانت والدته تظهر في «فيلم الفيديو» بين الفينة والأخرى، يقرّب الصور «بالمكبرة» لكنه لم يستفد بشيء فالصور ترتجف ووالدته لم تكن تنظر إلى الكاميرا، فمرة الصورة من الظهر ومرة من الجانب، تتحدث مع الناس. قال له والده أنها كانت ترتدي ثوب «Sonia Rykiel»، سترةً صوفية مع عقدةٍ عند الكتف وشرائط أفقية ترسم لوحةً خريفية كئيبة، وتنورةٍ منتفخة مصنوعة من فروٍ صناعي أسود. مضت ثلاثون دقيقة لا تحمل سوى صوراً مملة لتفاصيل هذا الزفاف.

قال والده بصوتٍ نائمٍ تقريباً: ذاك الفيلم هناك!

أدخل ناتان الفيديو الذي يحمل تاريخ «23. 2» وهو في نفس ليلة الحادث. تابع والده: لعلي أعرف تماماً ما الصور التي في داخله، كان يوم أحدٍ وقمنا بتصويره لنقدم نسخةً منه لجدتك يوم ميلادها.

هذا الفيلم، من بدايته حتى النهاية، لناتان وهو في السادسة من العمر، غارقاً بألعابه في غرفته الخاصة في سافيني، ثم حاملاً «سلوتو» دبه الكسول ويركض في الممر.

تخيل أن أريكة غرفة الضيوف سفينة وبينما كان يلعب سقط على الأرض فضمته والدته لتواسيه.

تناول مع والدته وجبةً خفيفةً في المطبخ، وأخيراً صوره و هو يلعب بزوارقه في الحمام، وضعت له والدته قليلاً من «الشامبو» ثم سكبت الماء وجففته ثم مسّدته أو بالأحرى داعبته بماء كولونيا «4711»، آه أخيراً اكتشف ناتان القارورة التي كانت على الرف أعلى الحوض، في الصور الأخيرة للفيلم، كان ناتان الصغير يمد يده لأخذ «القارورة» يُلح على والدته أن تعطه إياها فأذعنت لطلبه على ألا يقلبها ما فعله للتو، تاركاً «ماء الكولونيا» يسيل على ساعدها العاري الذي يتمسك به.

البر الوحيد بعد أن أغرقته أمواجٌ متلاطمة لبحرٍ هائج هو حضن والده الدافء الذي شدّه إليه بقوة ولم ينبس ببنت شفة أثناء عرض الصور، صُعق بذاكرته العجيبة التي تخفي في جعبتها كنوزاً في عمق أعماق عقله، وبالقدرة المذهلة للحلم الهندي على ترك العنان لتلك الذكريات الدفينة، هزّته انفعالاتٌ غريبةٌ، أيدٍ من الحياة الحقيقية امتدت إليه فغرغرت عيناه بالدمع يتحرق شوقاً لاستعادة «سلوتو».

شاهد لاحقاً الفيلم لثلاث مراتٍ على التوالي، فيوقف العرض ويبطء الحركة عند بعض التفاصيل وخاصة عندما تمرر والدته أصابعها في شعره وعندما تحمله عن الأرض لتضمه.

استمتع بقدرته على تحريك الفيلم كما لو أنه لعبة فيديو لا ليستمتع

بالشراسة وإنما بحب صافٍ ينثره ذاك الحلم، من صور الأمس التي عاشت فيه وعاش فيها دائماً.

حقاً لم يكن لهذه الصور نفس وقع لعبة الفيديو ولم يكن الوعي فيها شديد التركيز كسهمٍ ينطلق إلى الهدف، لكنها سحرٌ أكثر رقة تتيح متعة اللعب مع الزمن حيث يحرك طبقاته وذهابه وعودته ويغير مشاعره. سئم بسرعة من هذه اللعبة، خارت قواه أمام لهيب هذا الحرق القادم إليه من الماضي والمحفوظ تماماً في ذاكرته، فعصفت به آلامُ حبٍ ضائع وحنينٌ لعصرٍ ذهبي وسعير مأساةٍ قادمة تلوك صورها قواه بسرعة، ولأنه كان سيد الزمن في هذه اللعبة، كان واثقاً أن الألم لن يصرعه أبداً.

ترك الفيديو يعرض صوره وحيداً من دونه ثم وضع «الكاميرا» على الفراش إلى جانبه، واستسلم لمتعة صدى الأصوات المترددة في الغرفة في عتمةٍ لا يشي سوادها سوى الضوء الخافت للعرض، أبحر في صدى صوت والدته وصوته بعمر الست سنوات وهما يصدحان كجوقةٍ موسيقيا بتلك الأغنية التي ألفتها والدته وهي تعانقه، تلك الأغنية التي لن ينساها أبداً: «أحبك جداً وتحبني جداً، إننا نحب بعضنا جداً جداً...».

لم يكن الوقتُ قد تأخر بعد، إنها الحادية عشر مساءً إلا أنه كاد يغفو حين بدأ «i-phone» بالارتجاج، من هذا الذي يجرؤ أن يطلبه في مثل هذه الساعة: إنه راف!

امتزج هذا الرنين مع حشرجات حدادٍ وصخب الماء والضحكات في حمام سافيني، ثم خطر له أن إلحاح راف الذي أثقل عليه طويلاً لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يواجهه قد يعبّر عن ألمٍ كبير لا عن عنادٍ فقط وتذكر أحد «المشاهد» التي راودته منذ زمنٍ طويلٍ حين رأى راف يطرق بابه راجياً أن يفتح له بعد أن جُرح بحادث سير.

قبل أن يبدأ المجيب الآلي، فتح الخط مما فاجئ راف كثيراً، فارتبك

باحثاً عن كلماته المفقودة فما عثر إلا على التافه منها ليقول: «ألست نائماً؟»

بصوتٍ خارجٍ من غياهب كهفٍ فيكسر أعجوبة وسحر الثرثرة ندم أن فتح لها الباب.

أردف قائلاً: «هناك سوء تفاهم..».. مقدمةً لحوارٍ يبدو معداً وطويلاً لكن ناتان لم يكن مهيئاً ليسمع هذا الصوت وخاصة في هذا اليوم، فقاطعه بسرعة ضارياً موعداً: «غداً في المسبح»، ما كان من راف سوى المسارعة بالقبول.

قلق ناتان بعد أن أغلق جواله من حساسيةٍ جلدية يسببها الكلور وأرعبه ذلك فكتب رسالةً لراف: «غير ممكن غداً سأكلمك لاحقاً».

خمّن الألم الذي سيتسبب به لراف بعد الأمل الذي حظي به، فعجز عن التفكير وهو يتخيل ضيقه من ماء المسبح وغرقه جراء الاختناق بالماء. تفاقم الرعب وشعر...

أن قلبه يخفق بشدة وساقاه ترتجفان وهو يطأ مستشفى «قصر العين». ياسين بين يديه حقيبةً جامدةً ولكن لم يسارع أحدٌ لمساعدته. اقترب إلى مكتب الاستقبال حيث كانت امرأةٌ سمينةٌ تحتسي الشاي، سألته كما لو أن عمىً قد أصابها:

- ماذا تريد؟

أجابها بكل سذاجةٍ كما لو أنه يكفي الدخول إلى مستشفىً للعثور على طبيب:

- طبيباً...

متناسياً أن ما بين يديه فتىً تضرج بدمائه ولعله قد سلّم روحه لبارئها.

وضعت السيدة السمينة كأسها وألقت نظرةً على ياسين ثم أجرت

اتصالاً، فحضر للتو رجلان بزيٍ أبيض يدفعان نقالة المرضى ذات العجلات ثم لملما عليها الحقيبة الجامدة، وضعا عليها ورقةً أعطتهم إياها السيدة واتجهوا نحو المصعد.

تبعهم جمعة غير آبهٍ لأوامر السيدة بالبقاء هنا، لكن الرجلان منعاه من دخول المصعد الذي أُوصدت بوابته أمام أنفه. واساه وجود ياسين بين يدي طبيبٍ جيدٍ في مستشفىً كبيرٍ فإن كُتب لياسين الحياة سيشفى لا محالة ويعود ليملأ شوارع دار السلام بضحكاتٍ سعيدة.

تغصُ الممراتُ الطويلة ذات الطلاء الأخضر الباهت بلافتاتٍ وأسهمٍ يعجز عن فك رموزها التي تركله في عالمٍ مجهول يتعلّق فيه وحيداً مهجوراً، يراقب الناس يهرعون قلقين خلف أي زيٍ أبيض يعبر نحو القاعة الكبيرة.

نادته السيدة السمينة مرةً أخرى، فعاد إلى مكتب الاستقبال، حيث طرحت عليه سؤالاً:

- هل بحوزتك بطاقة الهوية الخاصة بالمريض؟

تساءل جمعة في سرّه ترى هل هي غريبةٌ عن البلد أم أنها تسخر منه، رجّح الاحتمال الثاني فكل المصريين يتوقعون أن ياسين ذي السترة القذرة والشعر الكثّ هو لا محالة من سكان الدرك الأسفل أي أنه قطعاً لا هويةَ له وإن تأمّل كثيراً قد يحمل «وضعاً مدنياً»، فأجابها:

- هل تريدين أيضاً جواز سفره مع الفيزا الأميريكية...

انبسطت أساريرها بعض الشيء وقالت:

- حسناً، أخبرني على الأقل ما اسمه؟

- اسمه ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام.

- ما اسم عائلته؟

- كما قلت لك اسمه ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام،

كل الناس يعرفونه هناك لا حاجة له لاسمٍ ثانٍ، عمل حتى ليلة أمس لدى سمير جامع الريش.

- ولكن ماذا سأكتب؟ ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام الذي يعمل لدى سمير جامع الريش.

- حسناً سيدتي، أجل فلتكتبي هكذا، لن يخطأ به أحدٌ، إنه هو.

تنهدت السيدة وقالت:

- يا بني! ليس لدي فراغٌ يتسع لكتابة كل ما ذكرت، يلزمني اسمٌ قصيرٌ يتسع في مربع الفراغ. كما عليَّ أن اكتب اسمك في المربع الخاص بمرافق أصحاب الحوادث، وأنت لا بطاقة هوية بحوزتك؟

يعيش جمعة وياسين دون اسم عائلة ولا حتى هوية. يدعوه الناس منذ زمنٍ طويل «جمعة» دون أي إضافة، إنه اسمٌ غريبٌ أو بالأحرى اسمٌ نادرٌ يدلُ على أحد أيام الأسبوع كما لو أنه ولد يوم «الجمعة». أما بالنسبة لبطاقة الهوية فلا بد من تقفي آثاراً لولادته في السجلات المدنية إلا أنه لا يعرف اسم عائلته ولا حتى مكان ولادته.

ليس بحوزة أي طفلٍ من أبناء الشوارع بطاقة هوية ما يقدم لرجال الشرطة حجةً ممتازة لابتزازهم فيقتادوهم ويوسعوهم ضرباً فلا جنيهاً واحداً في جيبهم يدسوه لهم. تحرمهم الحكومة من كل شيء فلا وجود لأي طفلٍ من أبناء الشوارع، وهم عرضةً ليخطفهم «الغيلان» وهم كما يقال جنرالاتٌ يعيشون في قصورٍ من ذهب فيسرقون أعضاءهم قبل أن يتخلصوا منهم نهائياً. تلك هي الشائعات التي تتردد في دار السلام وخاصةً لسرقة الكلى والتي تضاهي ثرواتٍ للمهربين المصريين الذي يبيعوها لأصحاب «المليارات» في الخليج العربي فهم مفرطي السمنة ومصابين بداء السكري. أفضل المهربين من يشتري الكلية من الفقراء بثمنٍ بخسٍ ليبيعها بعشرة أضعاف والأسوأ يسرقونها من الأطفال الذين لا وجود لهم، هكذا فُسِّر غياب عبد الله الطفل ذو الأعوام الثمانية والذي

عمل كعبدٍ تقريباً عند صانع «الحواتير»، غاب عبد الله بين يومٍ وليلة ولم يأمل أحدٌ بعودته.

قال جمعة للسيدة:

– اكتبي جمعة – العلب؟

– جمعة – العلب؟

– أجل فأسمي «جمعة» وأقوم بجمع «العلب» لأبيعها من جديد.

– حسناً سأكتب «جمعة العلبي» إنه يتسع بالفراغ المخصص،عُد غداً للحصول على أخبارٍ عن ياسين.

ألَح جمعة أن يعرف شيئاً عن وضع ياسين الآن ورجاها أن تتصل بالطبيب لكنها هددته أن تتصل بالحرّاس إن لم يغب فوراً عن النظر.

يعجُ الكورنيش بالمارّة لكن الوحدة عصفت به.رافقته الشمس حمراء اللون، وهو يتعلق بدرجة بباصٍ يعج بالمئات نحو دار السلام، وغمرته بشفقها في هذا الفراق الجنائزي، ها هي تتزلق معه على ضفاف الموت لتغيب خلف الطرف الآخر للنهر وراء الأهرامات قبل أن تبتلعها سحب الدخان التي تجرها العربات.

يلف شريط الصور الأخير لياسين أمام عيني جمعة دون توقف، فما انفك يتذكر حماسه الشديد وجرأته، وتلك الرشاقة التي اندس فيها بين المتظاهرين راكضاً إلى حتفه.. لن ينسى قط نظرته الأخيرة قبل أن تصدمه السيارة فيطير جسده مبعثراً فوق الأشجار ويسقط كالريشة على مقعد العشاق. يلهث جمعة الآن للبحث عن رجب ليلقي بين يديه هذه القصة التي آلمته فيشاطره الحزن ويكفكف دموعاً قد يذرفها أخيراً، ثم يذهبان معاً للقاء حسان، صاحب ياسين، يا لها من لحظةٍ مرعبة! لا شجاعة كافية لديه لمواجهته وحده، لا بد أن يرافقه رجب.

عبر فوق جسر المترو حيث وعده رجب أن ينتظره، إلا أنه لم يكن هناك. لا بد أن السأم قد نال منه فاتجه إلى قهوة «أيمن» في الحي العلوي.

اكتظت أزقة الحي السفلي بالناس الذين تعلّقت أبصارهم بقناة الجزيرة تبثُ صور حرب التحرير، أمام المقاهي والمتاجر. ودّ جمعة لو يلوح وجه ياسين متوّجاً بعلمه ثلاثي الألوان على الشاشات فيعرف الجميع هنا أن ذاك الفتى الذي طالما نعتوه بالعائب والعاهر والكراج هو الآن بطلٌ ولربما أصبح شهيداً. رغب أن يصرخ بالفم الملآن ولكن لن يصدقه أحدٌ إن لم يروه على شاشة التلفاز، فلملم يأسه واتجه بخطىً واسعةً ليرتقي الأدراج علّه يصادف رجب.

تمنع حواجز الشرطة الناس العبور من الحي العلوي إلى السفلي ولكنهم يرحبون بالقادمين إلى الحي العلوي ليغلقوا على أنفسهم ويلتزموا الصمت في فراغٍ محاصرٍ. عبر بين صفوف الحرّاس ذوي الزي الأسود وعندما تجاوز الصفَّ الأخير لمح «الضابط» لم يبرح مكانه، فقال في سرِّه أن ما كان عليه المرور من هنا وقد اقترف خطأً ولكن للأسف فات الأوان، ها هو الآن في مواجهة الضابط أمام الدرجات الأولى يجلس مفرشخاً على الكرسي بيده كأس شايٍ وبيده الأخرى عصا «الشيشة» ذات الدخان.

عوى الضابط قائلاً:

– اقترب يا ابن الخنزيرة!

اقترب جمعة عدة خطى نحوه وهو يدرك أنه يقترب خطوة إلى تعذيبٍ طويل لن يفلت منه أبداً.

– اقترب أكثر!

فاقترب جمعة أكثر بخطى ثقيلة خشي من الابتسامة اللطيفة التي رُسمت على وجه الوحش حسام، خشي من رؤية نيوب الليث بارزةً.

سحب الضابط طويلاً ثم زفر نفخةً طويلةً من دخان الشيشة وشاح بناظريه بعيداً عن جمعة كما لو أنه لا يساوي حتى نظرة. سأل بصوتٍ خافت: – ماذا فعلت بكيس الريش؟ طال انتظار سمير أمس ولكن ما رآك أحدٌ في الحي أين كنت؟

- هنا، باشا، هنا. ولكنني توعكت بعض الشيء في طريقي إلى سمير، فوضعت الكيس هناك خلف الجدار بعد جسر منيب لئلا يسرقه أحد، ثم لم أعد أدري ماذا حلَّ بي، ربما فقدت الوعي بجانب الكيس. هذه هي الحقيقة باشا أحلف بذلك.

استدار الضابط نحوه أخيراً مبتسماً:

- جمعة «بي» الرقيق، يفقد الوعي كحسناءٍ شابة! وعندما استقليت المترو في الساعة «الثالثة إلا خمس دقائق» كنت قد أفقتَ أم حدث ذلك فيما بعد؟

- لست أنا، أنا لم أصعد إلى المترو باشا.

- آه، لابدَّ أنه توأمك لا بل يرتدي نفس الكنزة التي يفوح منها رائحة الدواجن النتنة على بعد 200 متر.

لاذ جمعة بالصمت فما عاد في جعبته ما يقول ولا حتى بصيص أملٍ يتعلق به، ليس له الآن سوى الاستسلام لعنف هذا الوحش، فهيأ نفسه للإهانة وجسده للألم.

توقف المساعد عن طرح الأسئلة وعاد يحتسي الشاي المغلي وينفخ بين رشفتي شاي دخان «الشيشة» الأبيض الكثيف، جاهر باستمتاعه بها مصدراً طقطقةً باللسان ونهدات ابتهاج، وكلما رمق جمعة بنظرة الوعيد ابتسم له كما لو أنه يريد القول للغلام أن متعته بالشاي والتبغ المعطر تلُوح بمتعته الوحشية القادمة.

أخذ وقته، لعله ينتظر هبوط الليل الذي سارع بخطىً كبيرة مرخياً عتمته وبرده، رويداً رويداً فرغت الشوارع لتتركه وحيداً في مواجهة جلاده.

أخيراً، وضع الكأس جانباً ولف حبل الشيشة حول عنقها، فهرع أحد خادميه من المجموعة ذات اللباس الموحد لأخذها، ثم نهض عن كرسيه وخطا خطوة واحدة وكأنه يقصد صف الحراس ذوي الزي الأسود، استدار فجأةً وصفع جمعة بعنفٍ لدرجة أن ترنح مرهقاً وانهار على الأرض.

تتناهى لمسامعه صوته وهو يأمر المساعد صفوت باصطحاب الغلام إلى قسم التحقيق، شعر أنهم حملوه من كتفيه ليقف لكنه ترنح وكاد يسقط أرضاً لكن صفوت أمسكه وسحبه شرطيٌ آخر من كنزته إلى أن رمياه في مؤخرةِ سيارةٍ زرقاءِ مدرعةٍ حيث استعاد وعيه تماماً. لم يكن يفكر بالعذاب الذي سيكابده في قسم التحقيق، و لا في الجحيم حيث يجهل عدد الأيام التي سيسرقوها منه ليعرضوه لجرائمهم أو ربما للموت، ما يقضُ مضجعه الآن هو أنه لم يلتقِ برجب وحسان ليخبرهما عن ياسين الذي تركه وحيداً يعاني في المستشفى أو لعله لفظ أنفاسه الأخيرة مهجوراً بمفرده هناك.

لم يتغير جحيهم قيد أنملة، إنها ذات القاعات الرمادية التي لم تخضع قطُ للتنظيف في قسم شرطة دار السلام المُنار بمصابيح تستقطب آلاف البعوضات، وتعجُ فيه روائح العفونة فهي مزيجٌ مقيت للمجرور مع القمامة بالإضافة للمبولة ونتانة الأجساد التي ما اغتسلت منذ أيام.

يحتفظ مكتب الاستقبال ومكاتب الطابق الأرضي بمظهر مبنىً إداري عادي فقيرٍ هرءٍ جرّاء الاستخدام الطويل، يغصُ بموظفي قسم الشرطة الوقحين والذين يتكاثرون في المساحات الشاغرة بين الخزائن الجدارية المصنوعة من صفائح حديدية وأكوام السجلات التي تكسوها طبقاتٌ من الغبار ألفت المكان منذ زمنٍ بعيد.

كل هذه الفوضى العارمة حيث تترسب كل أنواع النباتات ليست الجحيم بل الجحيم الحقيقي يقبع تحت الأرض في قبوٍ لا نوافذ له، خلف الدرج حيث يقتادون «معذبي الأرض» قبل جمعة.

لم تعد وجهته مجهولةً، سيصل إلى الممر ذي النور الخافت، على جانبيه صفانِ مؤلفان من أربع زنزانات بمساحة 12 متر مربع يتكدس فيه حوالي عشرين سجين. تبقى إحدى هذه الزنزانات شاغرةً دائماً لتستقبل من سيتم التحقيق معهم أو من سيتعرض للتعذيب فقط لمتعة التعذيب،

فهم يعرفون براءته وليس بحوزته ما يعترف به، هذه غالباً حالة أطفال الشوارع.

عبر «جمعة» أمام تلك الزنزانات ذات القضبان، لا نور فيها، تلتمس الضياء من الممر، فتمكن من تميز السجناء الذين يمدون أيديهم عبر القضبان يطلبون الماء من الحراس، حشرجات ونواح الجرحى الممددين تقتحم العتمة المرتجفة بسعالٍ أجشٍ لأحد المرضى المسلولين ربما.

رموه في غرفة التعذيب مع نفس الأدوات التي ذاق عذابها في المرات الأربعة السابقة إحداها مع ياسين:

دبابيس وحبال كهربائية موصولة بالتيار، وعصي مكانس لم يتعرض لها بأعجوبة وكلاّباتٌ معلقة ببراغي في السقف حيث يعلقون الضحية على حاجزٍ...

تأكد ناتان أنه لن يهوي أمام المهمة الموكلة إليه، لن يحمل الحاجز جسده إن أفلت فجأة فهو لا ينوي شنق نفسه ولا حتى يرغب بالموت، وإنما مجرد أسلوب لسحب نفسه حتى يجثو على كعبيه وتتحمل ساقاه ثقل جسده، يجب أن يشد الوشاح بحذر على مستوى الشريان السباتي، ولا بد أن يبقى بعضاً من الوعي يقاوم الحلم ليتمكن من النهوض وحلّ الوثاق حول رقبته، فكر بضبط منبه الجوال ليتفادى وقوع أي حادث فالرنين والاهتزاز سيعيدانه لوعيه، إن اقتضت الحاجة. سيضبطه بعد مرور عشر دقائق فقط في المرة الأولى وسيمدد هذه الفترة رويداً رويداً حتى لا تتجاوز «3 دقائق» أكثر، فهذا هو الحد الأقصى الذي لا يجوز تخطيه.

علو القضيب المعدني في خزانة الملابس يكفي ليتعلق بوشاحٍ طويل ينتهي بعقدةٍ متحركةٍ، عليه تحديد المسافة بين القضيب والعقدة بدقةٍ متناهيةٍ، بالسنتيمترات. يمكنه تحديدها بعد ربط الوشاح بالقضيب المعدني ثم يقوم بتغيير مكان العقدة حسب الطول المناسب.

فكر ناتان بالطريقة المثلى ليصل لمراده دون خطر، فتوصل لطريقة تدريجية وهي أن يجثو على كومةٍ من سبع ألبومات تانتان، يضع العقدة المتحركة على العلو المناسب لتشد على رقبته ثم يسحب الألبومات الواحد تلو الآخر، عند الألبوم الرابع «هدف القمر» شعر ببدء الاختناق، حرك العقدة نحو الأسفل قليلاً فما عاد يشعر بالضغط إلى أن وصل للألبوم السادس «معبد الشمس»، لدى وضعه الألبوم السابع «سيجار فرعون»، لم يتسبب بالاختناق بما يكفي لقطع الأوكسجين، فألقى الألبوم الأخير.

هذه المرة بات الأمر مناسباً، ضبط «المؤقت الزمني» لمدة «10 دقائق» وأمسك بجواله وبدأ بدورانه السريع ثم نهض فجأةً وهو يحبس أنفاسه ثم ترك نفسه يقع ببطء حتى جلس على كعبيه. بدأ ضغط الوشاح على رقبته يزداد شيئاً فشيئاً، أُطلق المؤقت الزمني وشدّه بيده التي أصبحت منسية كسائر جسده يغوص في أعماق مسبحٍ بمائه الفاتر الشفاف، شعر به لدرجة أن تساءل هل هذا ماءٌ حقاً أو مجرد فراغٍ مبهرٍ بضوءٍ أبيضٍ، إنه يسبح بانعدام الجاذبية فلف حول نفسه دون جهدٍ يذكر، في نشوةٍ عارمة تحلّق به للأعلى وتهوي للأسفل حتى تناهى لمسامعه أنغام البيانو مبعثرةً تتساقط كقطراتٍ من الكريستال على وجه الماء، فاخترق السحب المتموجة المتعددة الألوان ليكتشف مصدر هذه الموسيقا الساحرة، هذه الهدهدة المتراقصة على ضفة البحيرة المتلألئة حيث تعبق جزيرة الكنز التي اكتشفها بعطرٍ زهري خلّاب، على مقربةٍ من الشاطئ ذي الرمل الأبيض يعانق صفاً من أشجار جوز الهند والمانغو والجوافة.. ها هو مصدر الألحان.. فتاةٌ شقراء بمايو أبيض اللون، تطلق بيدها ألحاناً عندما تتمايل على الرمال فتتساقط خلفها حصىً سوداء صغيرة الحجم بسرعةٍ تتزايد أكثر فأكثر حتى ترتجف الأرض تحت خطواتها، هذا الارتجاج الرنيني سحبه من حلمه ما هو سوى ارتجاج ورنين جواله.

وجد نفسه فجأةً منتصباً على ركبتيه، وقد انحل ضغط الوشاح حول رقبته ليستعيد قدرته على فك وثاقه قبل أن يسقط على «ألبومات تانتان» أسفل خرانة الثياب المعتمة. وها هو يستعيد وعيه رويداً رويداً في وضعٍ جنيني يرتاح فيه.

طالما أحب رائحة هذه الخزانة المألوفة حيث تمتزج روائح الجلد المستعمل والصوف القديم المنسي وشذى من «حديقة على النيل» عطره المفضل.

يتملكه الارتياح هنا كما لو أنه في علبةٍ مغلقة تتسرب إليه بعضاً من الأصوات في الخارج معانقةً رنين أنفاسه.

حلمٌ جديدٌ واستغرابٌ جديد، من أين جاء «عطر الورود» تلك التي أحبها والده؟ لم تكن رائحة الخزانة، فمن أين هبت؟ ثم تذهله هذه القدرة الجديدة كلياً في معرفة تلك الأشجار التي رآها لأول مرة وما تردد بمعرفة اسمها «مانغو وجوافة». منذ زمنٍ طويلٍ اصطحبه والده إلى الحديقة النباتية في «أوتوي»، لعله أخبره عن تلك الأشجار لكنه لا يذكر ذلك بالحقيقة.

أكثر ما يثير فيه الحيرة في الحلم الهندي وكذلك في الأحلام التي تراوده ليلاً هو ذلك الاختصار اللحظي لقصةٍ طويلةٍ جرت وفق منطقٍ لا يخضع للجدل لتفضي إلى نهايةٍ هي من أشعل فتيلها: رنين المنبه. كيف للدماغ أن يخلق كل هذه الأعاجيب حين يُطلق له العنان؟

لا غرابة بحوض السباحة فقد أمضى أكثر من ساعتين في مسبح «إيسي» برفقة راف حين تردد بالرفض لكن متعة انعدام الجاذبية والنور في الحلم والألوان ليس لها علاقة بالبلدية التي تملأ المسبح بماءٍ فاترٍ مشبعٍ بالكلور، تمكن مؤخراً من احتماله، حيث تدوي ضوضاء الأطفال كما لو أنهم في كاتدرائية.

هناك في المسبح، بدأت حكايته مع راف:

قطعا طول المسبح وهما يسبحان ويغوصان ثم جلسا على طرف المسبح ليلتقطا أنفاسهما وبدأا يثرثران عن المدرسين والطلاب وينعتون البعض والآخر بما يناسب، وهكذا إلى أن انزلق الحديث رويداً رويداً نحو اعتباراتٍ جنسية صرفة، حيث أراد راف أن يعرف ما رأيه بالعلاقة بين الفتيان، فتظاهر بأنه لم يصدق ناتان حين قال له أنه ما فكر قط بالفتيان الذي أتى على ذكرهم وأنه يميل فقط للفتيات، فسأله بنوعٍ من الإلحاح:

– لكنك لم تقل «لا» ذاك اليوم، لم تبدُ مرتاحاً و لكن أيضاً لم يتملكك الاشمئزاز.

– لم أكن مشمئزاً ولكن لابد أنك لاحظت أنني لم أكن متحمساً.

تساءل ناتان في سره عن السبب الذي دفعه للموافقة حينها ولماذا لم تثر قرفه؟ ربما لأن راف يشبه الفتيات، فعندما أسبل النور على وجهه وجسده ضياءَ النهار اللامع الغارق في الزجاج المكسور، بدا له شديد البياض ورشيقاً بالكاد يغطي جسده زغبٌ لدرجة أن يصعب التميز بينه وبين فتاة.

المشكلة تكمن في هذا الوجه الطفولي الملائكي والذي بأسلوبٍ غامضٍ ومبهم، يقدم أشياء مفسدة وقوية لا بل عنيفة تتنافى مع مظهره الروحاني. ما عاد الآن ناتان يفكر سوى بالخروج من هذا الصراع الذي أرهقه فهو لا يميل إلا لعلاقةٍ سلسة ومتناغمة تمنحه إياها مانون في أحضانها العذبة. لعله قد يهوى فتياتٍ أخريات مثل تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين والبشرة الشاحبة المزركشة بالنمش التي صادفها في المسبح مرتديةً مايو أبيض اللون يشفُ عن نهدين بلون بشرتها النفيس يرقصان لخفقان قلبها بإيقاع أنفاسها اللاهثة. قطعت طول المسبح ثم ارتقت السلم كاشفةً عن فخذين ببياضٍ لبني متقزح، فالتقت نظراتهما مرتين وهو يتأمل جسدها الرهيف الممتلئ حتى جاءت لتجلس صدفةً

بجـواره، تهفهـف علـى وجههـا خـصلتان شـقراوان ضـاربتين للحمـرة قـد أفلتتا من قبعتها.

لم يكن راف قد توقف بعد عن المقارنات بين الفتية وفي تلك اللحظة بالذات قال كما لو أنهما ما زالا بمفردهما، أو لعله لم يلحظ الفتاة التي حطت بجوار ناتان:

– حسناً، هل تريد أن أقول لك من هو أكثر الشبان إثارة في المدرسة؟

لم يجبه ناتان لا لأن خيار راف لا يعنيه فحسب وإنما لأنه سؤالٌ غير لائق بحضور هذه الفتاة التي لمست يدها أنامله فسرت فجأة في جسده رغبةٌ عارمةٌ أعيت رجولته.

تابع راف: إنه أنت.

رمتهما الفتاة بنظرةٍ، لا بد أنها سمعت ثم سحبت يدها ورمت نفسها بالماء وسبحت حتى الطرف المقابل.

تابع راف بصوتٍ متردد خافتٍ شديد التأثر كما لو أنه لم يلحظ الفتاة وكأن لا شيء أكثر أهمية من حديثه الممل:

– أنت بالنسبة لي تمثل أكثر من مجرد إثارة..

بالكاد أصغى إليه ناتان فهو ما زال يتابع الفتاة ذات الشعر الضارب للحمرة والعينين الخضراويين، قطعت حوض السباحة ببعض حركات كرول(*) رشيقة ثم خرجت عبر سلم الطرف الآخر ولكن هذه المرة لتختفي نحو المشالح.

رغب ناتان بهذه اللحظة بالذات أن يقول لراف أنه «أحمق»، لكن شيئاً ما منعه، ربما إحساسه بأنه ليس الوقت المناسب وخاصة أنه أدرك أخيراً ما قال الفتى، أما هو فما كان لديه سوى رغبةٌ عارمةٌ باللحاق بتلك الفتاة، فنهض قائلاً: «سأغادر».

(*) كرول: سباحة سريعة يكون فيها الرأس مخفوضاً في الماء و تتناوب الذراعيين و الساقيين بالحركات.

لم يدرك أن راف قد فسر مغادرته المباغتة تفسيراً خاطئاً، فقال له: «ستغادر للتو؟». لكن ناتان لم يجب فتبعه راف إلى المشالح.

للأسف لم تكن الفتاة عند «المغاسل، لا بد أنها ترتدي ملابسها في إحدى الحجرات، فأدرك أنه قد فقدها.

ذهب ناتان ليحضر سائل الاستحمام فائق النعومة برائحة البطيخ والخيار، فتبعه راف وظل يلاحقه حين دعك جسده تحت مرش الماء لاجتثاث أي أثرٍ للكلور وأيضاً حين عاد إلى حجرة الملابس حيث توسل له بالدخول، يزداد إلحاحه بازدياد الرفض محاولاً مساومة ناتان بقبلة، بمداعبة، بمجرد لحظة، بيد أن ناتان كان يستمتع بنظافته والرائحة الهفهافة العذبة التي نشرها سائل الاستحمام على بشرته فلا يرغب بالفوضى التي يعيشها راف دون فائدة تذكر.

توجس ناتان خيفة من إلحاح راف المثير للشفقة ومن شغفه المبالغ به واعترافاته التي باح بها مؤخراً، فرغب بالابتعاد عنه سئم المقاومة فدفعه دون مراعاةٍ وقفل الباب بالمفتاح. سمع صوتاً غريباً وهو يرتدي ملابسه قادم من الحجرة المجاورة، إنه راف، فألصق أذنه على الجدار الفاصل ليكتشف دموعاً حارةً تهطل من عيني المطرود...

كطفلٍ يائسٍ، تساءل من أين يأتي هذا البكاء الذي أخرس السجناء جميعهم. طفلٌ ضائعٌ وجد نفسه يغوص في العتمة التي تلتهم الزنزانتين المقابلتين لزنزانة جمعة، لم يتمكن من رؤيته لكنه عرف من صوته أنه طفلٌ لكنه ليس من «أبناء الشوارع» فهم لا يبكون أو بالأحرى لا يذرفون الدموع بحضور أحدٍ أو على الأقل في جحيم الرجال ذوي الزي الأسود.

لا بد أنه فتى قد ألقي هنا للمرة الأولى، تم إيقافه سهواً أو لخطأ جسيمٍ قد ارتكبه كأن تسبب بحريقٍ ما أو ارتكب جرماً ما أو سرق هاتفاً جوالاً، وهو الآن يفكر بأحضان والدته. لابد أنهم عاملوه بقسوة أو أكثر من

ذلك، كما حدث أحياناً أن يرموا فتىً في سجنٍ حيث تعفّن منذ زمنٍ فيه أشخاصٌ وضيعون، يبقون دائماً في غياهب هذه السجون وحوشاً يلقون الرعب في نفوس المساجين الآخرين. منهم عصابات ومنهم ساديين ومنهم متوحشين محكومين بالإعدام وما عاد لديهم ما يخسروه، يخضعون لرئيس العصابة ليتمسكوا بحياتهم. بين هؤلاء الضواري، هناك بعضُ الأبرياء، تشعُ وجوههم بالطيبة كمرآةٍ لأرواحهم المطمئنة، رغم ما يكابدون من آلامٍ ورغم الدم الذي يسيل من جراحهم إلا أنهم يسعون لإيجاد توافقٍ بين الرجال خلال إقامتهم في السجن.

ذات مرة ومنذ عدة أشهر، صادف «جمعة» ساحراً ينتزع الآلام من المعذبين، ومرةً، التقى بتاجرٍ فاحش الثراء، حوّل غرفة السجن إلى قصرٍ بفراشٍ مريح ومراوح وولائم تأتيه على الغداء والعشاء، وما أهمل السيجار والحشيش و حتى القنوات الفضائية الخاصة بكل الوضيعين، إلا أنه ما أقام سوى ثلاثة أيام. ما إن خرج حتى صادر الحراس كل ما كان بحوزته.

أمر أحد السجناء «الغلام» أن يلتزم الصمت ويتوقف عن البكاء خيرٌ له من أن يوسعه ضرباً، فهذا النحيب قد أثار أعصابه ودفعه إلى الجنون.

لاذ الغلام بالصمت بعد بضعِ شهقاتٍ مكبوتة، فعادت الأحاديث تسيل بين المساجين وأخذ جمعة يفكر بمصيره، يتساءل: لم رموه في غرفة التعذيب وها قد مضت ساعتان وما اكترث به أحدٌ؟ لا بد أن المساعد قد أُستدعي لمهام أكثر قذارة في ليلةٍ يلتهم الهياج الشعبي سكونها، أو لعل كثرة الضرب قد أعيت الحراس طيلة اليوم، فاستسلموا للراحة مع هبوط الليل وسلّموه لعقوبة أشدُ، عقوبة تركه بين وسائل التعذيب ليتعذب ألف مرة قبل أن ينالوا قسطاً من الراحة ويقبلون إليه، فرؤية المسامير والحبال الكهربائية لا تبعث الطمأنينة في النفوس.

آلمه كثيراً هجر ياسين وحيداً في المستشفى لكن الظمأ الآن طغى على كل الآلام.

لا بد أن كل الماء في جسده قد تبخر في شوارع الحرب، فما روت المياه عروقه مذ كان في زقاق السوق أمام المترو حين ترك كيس الريش قرب السكة الحديدية، جفّ فمه وتيبس لسانه فقد ركض لساعاتٍ وحمل ياسين طويلاً، أعياه الإرهاق فافترش الأرض المطلية بالإسمنت وخلد للنوم بعيداً عن القضبان متحاشياً النور في إحدى الزوايا التي ابتلعتها العتمة لتتكاثر فيها أنواعٌ غريبةٌ من الحشرات.

أطبق سرطان البحر على ساقه فطرده للتو، وتمدد على طوف لن يتمكن دفعه سوى رجب ذي القوة الخارقة، اقترب من المنحدر فلاحت عبر الضباب الخفيف ناطحة سحاب تلمع كالذهب بين يدي الشمس المائلة للغياب، مزروعةً بالبيارق والأعلام، يغمرها من الخلف جبالٌ برؤوسٍ بيضاء حيث تنحدر شلالاتٌ برّاقة، ها هي فرنسا، فيضٌ من نورٍ وماءٍ وغنى. تشبث الفلاحان بالطوف لئلا يشربا من ماء البحر، فالشرب هنا يعني الموت.يحيط بهم الموت من كل جانب ويصعد إليهم من الأسفل، لا خيار لهما سوى التجذيف إلى الأمام، لا مخرج إلى الحياة سوى بالمضي قدماً نحو الضفة المنيرة مهما كلّفهما الأمر.من حولهم، أسطولٌ من الطوافات تغصُ بالعطش، على مقربةٍ من طوافته، غلامٌ صغير يرتدي «غلابية» بلونٍ أزرق غامق، لم يكن يعرفه ولم يميز وجهه ولكن يبدو أنه فلاحٌ من الجنوب.

فجأة كُسر مجذافه وبدأ بالصراخ.

استيقظ «جمعة» بعيداً عن فرنسا وملذاتها التي كاد يتذوقها، لتصمَّ آذانه صرخات «الغلام» الهيسترية التي جالت في الفضاء المعتم للجحيم. صرخاتٌ تعبر عن هلعٍ فظيع أو ألمٍ مبرح أو هلوسةٌ معتوهٍ مرعبة.

سارع حارسان بزيٍ أسود إلى الزنزانة التي يصدر منها هذا العويل، مقابل زنزانة جمعة فتناهى لمسامعه شتائمهم والضربات التي أنزلوها بالغلام. تلاشت صرخات الغلام رويداً رويداً، حيث كانت قويةً حين انهالوا

عليه بالضرب والصفع والشتائم لتتحول لأنين يخفت ويخفت حتى يتلاشى ولم يعد يتسبب بالإزعاج لأحد.

مشهداً لا نهاية له اختبأ خلف مجموعة المساجين الذي يستندون على القضبان. أخيراً، خرج الحارسان من تلك الزنزانة. صرّ قفل باب الزنزانة حيث تم إيقاف جمعة فأمسكوه من كنزته ودعّوه بين سجناء الزنزانة المقابلة نحو الغلام الذي انطوى على نفسه في إحدى الزوايا بغياهب السجن، ونبحا يقولان:

«اعتني به! لو سمعنا صراخه سنقتلك أنت!»

استدار جمعة وألقى نظرةً على تلك الكومة الصغيرة المشوّهة بملابس ممزقة، تعلق ناظراه بالسقف وفمه مفتوحٌ قليلاً وعلى وجنتيه آثارٌ سوداء خلفتها يداه الوسختان حين مسح دموعه. لكن هذا لا ينبأ بالخطر بل يُحدِق به في الطرف الآخر، بين هؤلاء السجناء الخمس عشر الذين يحملقون به.

سرت الطمأنينة في نفس جمعة بعد أن تعرف على بعض الوجوه وألقى التحية على من يصادف عادةً في أزقة الحي العلوي مثل عبد الرحمن مهرب المسروقات وأحمد القوّاد ومصطفى مهرب الإسمنت، إنهم شخصيات مرموقة بما يدفعون «رشوة» لرجال الشرطة ولكن يبدو أنهم شحوا بالدفع في الآونة الأخيرة.

هناك أيضاً سعيد رئيس عصابة أبناء الشوارع والذي كان ينتهك أعراض المنضمين إليه مهما كان عمرهم ويترك آثاره على جبينهم أو وجنتهم بالسكين. قيل أنه هَرِم وأصيب بمرضٍ عضال فآثر البقاء في السجن على أن يقع في شرّ أعماله، هرباً من ضحاياه الذين قرروا الإجهاز عليه.

تضم المجموعة أيضاً شباناً قيل أنهم شرفاء بيد أنهم عاطلون عن العمل أو عبيد متمردون، تم توقيفهم ليكونوا عبره لغيرهم.ألقى رجلان أو ثلاثة الريبة في فؤاده، يبدو أن الإجرام حرفتهم فتوخى الحذر.

اقترب من الغلام المنطوي على نفسه، جلس بجواره، لمح وجهه الطفولي وعيناه اللتان تشفان عن جنونٍ، وأطرافه النحيلة. تثبت ملابسه الممزقة أنه غنيٌ صغيرٌ يرتدي حسب «الموضة» فهو يرتدي قميصاً بأكمام طويلة رُسم عليها لاعبٌ صغير يرتدي كنزة رياضية بلونٍ أزرق غامق وبنطال جينز ذي خصرٍ منخفضٍ مع حزام ملاكمة أسود اللون وينتعل حذاء من ماركة «Nike» تمنى جمعة لو يستعيره.

استغرب جمعة أنهم ما سرقوا منه شيئاً عدا ساعة اليد التي ربما لم يكن يرتديها بسبب صغر عمره.

قال مصطفى: - لابد أنه مجنون، إنه ينتحب ويزعق بشكلٍ يستحيل النوم بوجوده، بيد أنه لم ينبس ببنت شفة، لعله أبكم.لم يتعرف عليه أحدٌ في الحي، يبدو من ملابسه أنه من خارج دار السلام فحذاءه يكلف ألف ليرة على الأقل. أرجّح أن يكون من المعادي.قيل أنه اعتلى أحد أبنية شارع عباس - حلمي مصلح التلفزيونات، واقترب من الحافة كما لو أنه يريد الإلقاء بنفسه في الفراغ. لمحته إحدى النسوة فصرخت حتى جمعت الحي وهرع رجال الشرطة إليه، فبدأ يرجمهم بالحجارة والآجر، وقد أصيب أحدهم، سُلخ نصف جلد الرأس وسال دمه كالخاروف، أخيراً تمكنوا من القبض عليه، لم تكن بحوزته بطاقة هوية ولم يلفظ أي كلمة.

لمس جمعة جبين الغلام، لم يكن يعاني من الحرارة. حيث لا زالت عيناه تحدقان بالفراغ وأنفاسه قصيرةً لاهثة. حمله من إبطيه وسحبه نحوه واضعاً رأسه على فخذيه ثم أغلق جفنيه.لم يبدِ الغلام بين يديه مقاومة استسلم له كما لو أنه فقد الوعي.

سرت بلبلةٌ في الممر، نهض كل السجناء، أدرك جمعة أنه وقت الشاي. ضائعٌ في الزمن، لا يدري كم استغرق نومه ولا توحي المصابيح الثلاثة المرهقة في القبو عن الوقت، ربما هي السادسة صباحاً، عادة ما يوزعون الشاي والخبز بهذه الساعة.

الشاي هنا عديم الشاي والسكر، والخبز قطعةٌ كرتونية ضاربةٌ للسواد، شرب العطشى الكأس دفعةً واحدة وكذلك فعل جمعة، تحرَّق شوقاً لكأسٍ آخر، للأسف ولّى الحراس أدبارهم.

تردد جمعة بشرب كأس الغلام التي تلّوح له مليئةً بالشاي، لا بد أنه كان ليفرغه دفعةً واحدةً، لو لم يذكره هذا الفتى المهجور الغافي على فخذيه بياسين الذي احتضر بين يديه.

أجل، لم يهب هذا الفتى حياته لاغتيال الظلم وما قاسمه يوماً ساعات البؤس والألم المضنية، لا بل إنه غنيٌ وأصابه الجنون لعله هاربٌ من الملجأ، إلا أن وجوده المتجرد عن الماديات وروحه السابحة بعيداً والتائهة في حدود اللانهاية تثير في نفسه تلك الشفقة التي غلّف بها ياسين.

خبأ الكأس خلف ظهره وانتظر أن يبرد بعض الشيء، ثم ساعد الصبي على النهوض وأسنده على كتفه ثم سكب رشفةً من الشاي الهارب من خمس عشرة رغبةً في فمه المفتوح قليلاً، لكن الصبي لم يبلع قطرةً واحدةً وسال الشاي على ذقنه ثم على رقبته ليضيع آسفاً في القطن الأزرق لقميصه.

يا له من إثمٍ فادحٍ! شايٌ ينسكبُ هباءً في سجن يتلظى بظمأ العيون. خطر لجمعة أن يبلل كِسرة خبز ويدسّها في فمه، لكن الفتى لم يمضغها أيضاً وعيناه مفتوحتان جداً لكن يبدو أنه لا يرى الوجه المضطرب المنسي المنحني فوق رأسه.

بعد برهةٍ من الزمن، لم يعد هذا الجسد يؤتي بأي حركة، لا يئنُ ولا يتأوه، احتل مكانَ ياسين. بدأت أنفاسه تزداد لهاثاً مصدرةً طنيناً غريباً.

حاول عبثاً أن يساعد الفتى على شرب القليل من الشاي المتبقي في الكأس وعندما يأس من المحاولة، ازدرد هو الرشفات الأخيرة ووضع الكأس جانباً، ما عاد بوسعه فعل شيء، ترك الصبي مسترخياً في أحضانه يزفر بعضاً من حياته في أنفاسه التي تحشرج ألماً.

تململ بعض السجناء معبرين عن استياءهم، سيدفعهم أنينه المثقل بالألم للجنون. تذكر جمعة وعيد الحراس. تردد لبعض الوقت وقبل أن يحول أنينه إلى عويل، أسند رأس الفتى الهامد على الأرض ونهض متوجهاً نحو القضبان ونادى الحراس، صرخ بأن الفتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ولابد له من طبيب.

سارع أحدُ الرجال ذوي الزي الأسود، ما رآه مسبقاً، دخل الزنزانة وألقى نظرةً على الفتى ثم قال:

- حسناً، الزموا الصمت سننقله فوراً.

بضع لحظات مرت على مجيء أربعة حراس برفقة طبيبٍ حقيقي فحص الفتى فأمر بنقله إلى المستشفى على وجه السرعة.

ضمه أحد الحراس بين يديه بحنانٍ أمٍ، لعله كاد يقبّله.. ثم غادر المنقذون الزنزانة، تاركين جمعة يغرق بأفكاره، قال في سره أنه قد أخطأ بتشبيه الفتى بياسين فهذا ابن رجلٍ ثري لابد أن له صداقاتٌ متينةٌ مع جنرالاتٍ أو وزراء، ما زال للإنسانية متسعٌ في هذا الجحيم المرعب..

الذي وصم مصر في القرن الثالث والعشرين ضمن الإطار الدموي للعبة «Serious Sam3»، لم يكن ناتان يرغب بقتل سوى تلك الوحوش الضارية القادمة من كوكب «Mental»، لا هم له سوى رفع نتائجه، لينزلق رويداً رويداً في عنفه الخاص وهو يطلق النار عليهم أو يفجر رؤوسهم بهراوته الدائرة، متعةٌ قد تخلصه من الضيق والاضطراب الذي يهدد حياته بسبب الحب البائس لراف.

قرر ناتان ألا يستسلم أبداً لإلحاح راف الذي لا نهاية له والذي ازداد أكثر فأكثر، بعد ذهابهما معاً إلى المسبح عبر اتصالات ورسائل وإيميلات، ثم مشاركاته على صفحته على «الفيس بوك» والتي تلقي رموزها الريبة في النفوس وتزيد من حيرته، وأخيراً باللقاءات التي يفتعلها في ممرات المدرسة،

يبدو أنه أساء توجيه مهمة «جيش الكاميكاز» الذين لا رؤوس لهم بأيادٍ تحولت لقنابل والذين يظهرون دونما انقطاع صارخين، وما إن يتم تفجيرهم حتى يعوضون بآخرين سريعاً، ينبثقون في شوارع القاهرة النائفة على أبدية الأهرامات.

عادةً ما يقذفه هذا النوع من الألعاب إلى عالمٍ افتراضي يفوق بمتعته و أهميته هذا العالم حيث لا مكان له، لكن للأسف تمتد اليوم إليه أيادي الواقع المزعجة لترهق كاهله بتدخلها.

رأى راف بعيون أولئك «الكاميكاز الصارخين» ولعل هذا الصراخ الذي يُحسب له أن يُدبّ الرعب في قلب Sam قد يؤول لشكوى طفلٍ باكي.

إلا أن ناتان رأى راف تحت نبال الرجال العقارب المتكاثرين في مصر الخيالية هذه، فكلما أبدى له الحب وخزه وخزةً مميتة أو على الأقل كريهة يعاملهم Sam أعداءً له أما ناتان فلا يرى في راف عدواً بل تأخذه به شفقةٌ وخاصة بعد أن سمع شهقات البكاء تتسرب من حجرة المشالح.

لن يغفر له البتة الاضطراب الناتج عن عشقه ولا الألم الذي تمخض عنه شعورٌ قاتلٌ بالذنب. كم تمنى ناتان عندما يراه يقترب منه في ممرات «قاعة الميديا» بصدفةٍ مفبركةٍ أن يخفيه بطقطقةٍ بسيطةٍ كالفأرة.

ما المقابل الذي يعاني من أجله من كل هذا اللوم والرجاء والذي يقف عاجزاً أمامها عن الإجابة أو لاجئاً لعباراتٍ يتجنبه بها أو جملٍ مطليةٍ بالكذب مثل «أعلم أن هذا صعب»، «لم يصلني الإيميل»، «لا أدري ماذا أقول لكنني لست حاضر الذهن الآن..» وغيرها من العبارات. في حين أن راف وطيلة تلك الفترة لم يكن يخفي معاناته ولا رسائله التي لا تحصد سوى الصمت، وبدأ القلق يكتنف القصة أكثر فأكثر. لا سلاح يلوذ إليه ناتان في حياته الواقعية سوى التزام الصمت، ظناً منه أن الإحباط هو مصير الحاحه الذي يفاقم من عذاب «راف» واتصالاته التي تزداد إزعاجاً.

لكن المصيبة الأكبر في التعليقات التي يتركها على صفحة ناتان على «الفيس بوك» على مرأى ومسمع الجميع، فيشهد كل الأصدقاء على يأسه.

عرض مقطع من فيديو «fade to black » لـ «Metallica» شارحاً لمن لا يتقن الانكليزية موضحاً النهاية الحتمية لما يكابد من ألم:

«فقدتُ طعم الحياة، لم يعد لدي ما أقدمه ولا أمل لي، لعل الموت يحررني..»

ثم عرض مقطعاً من فيديو «Gloomy Sunday» لـ «*Gainsbourg*» يقول فيه:

«سأفارق الحياة يوم أحد حيث كابدت الكثير، حين تعود سأكون قد غادرت، ستلمع الشموع الذائبة كأملٍ حارق، أما أنت، دون عناء، ستبقى عيناي مفتوحتين، لا تخف يا حبيبي، إن لم تريانك، فهي تقول لك أحببتك أكثر من حياتي..» ثم نشر كليب «No Surprise» لـ «Radiohead» حيث يبدو «Thom Yorke » على وشك الغارق في حوضٍ و هو يغني:

«*لا إنذار لا مفاجآت صمت صمت، آخر نوبة آخر عذاب، لا إنذار ولا مفاجآت.........*» أو لعله غرق حقاً، كيف لنا أن نعرف لعل الماء قد انحسر بعد ان رسم ابتسامة السلام الذي لا يزول ليصطحبه إلى «fade to black » جديدة إلى ليلٍ ضبابيٍ حالك السواد.

كان راف ينشر ما ينشر على صفحة ناتان أثناء نومه فلا يكتشفها إلا بعد مضي عدة ساعات لا يجرؤ على حذفه، فالمشكلة لا تكمن بحذفه من الصفحة وإنما بحذفه من الواقع، وناتان لم يكن ينوي أبداً أن يتسبب بموته، بل إن هذه الفكرة أدخلت الرعب جليساً ثقيلاً في قلبه، رغم ذلك فهو يمقتُ هذا النوع من المقايضة «إما أن تحبني أو أقتل نفسي، حياتي تتوقف عليك..» ليزيد على أسباب عذابه إحساس بالذنب.

تملّك مانون القلق من تلك التعليقات التي يرسلها على صفحته الخاصة قارئة بها تلميحاتٍ خطيرة، فأجابها ناتان«ممل»، لكنها لم تكن

توافقه الرأي فهي ترى في ذلك حيلة كريهة لإرغام ناتان على النزول عند رغبات راف. كانت مانون تتحدث والمكر يلف حديثها وكذلك القسوة فهي تعتبر أن هذا الهجوم يشبه محاولة اغتصاب. نصحته أن يهدد راف بتقديم «شكوى تحرش»، فطالما رأت في راف شخصاً غير متوازن مخادع يختلق القصص والفتن ليوقع بين الناس، ربما يشبه سلوكه كل الشاذين.

لم يصدق ناتان ما تقول مانون فقد سمع بكاءه إلا أنها تظن بأنها دموع التماسيح. تمنى لو أنها محقة ولو كان بحوزتها دليلٌ لأجهز عليه ربما بوحشيةٍ و من دون قفازات حتى. ولكن كيف له أن يعرف؟

لم تلحظ مانون أمراً رغم أنه يبدو جلياً، فهي تظن أن راف يفسد حياته دون أن تدرك أن الحياة بالنسبة لناتان ليست حريّةً بالخراب، يجدر بها القول أن راف بلبل سير الأيام السلس وهزَّ السأم المرافق لهدوئها، فأطلق العنان للحياة وسمومها المقيتة التي لا مفرٌ منها، ملقيةً الألم أو المرض أو الموت. رغم أن أسوء ما في الوجود هو المواجهة، فكان لابدً من التخلص منه مهما كان الوضع.

طرح ناتان في إحدى الأمسيات مشكلته على المائدة دون الدخول بالتفاصيل، فاقترحت لويز أن يحلَّ الأمر بلطافته المعهودة عبر حوارٍ مقنعٍ يخبره من خلاله أنه حقاً يتمسك بالصداقة التي تجمعهما، مجرد صداقة.لا بد أن يعي أنه يحب مانون، أنه لا يميل للفتيان، كما أنه يأمل من كل قلبه أن يترعرع في كنف سعادةٍ متبادلة.فليسدي له النصح بالتردد على مواقع الانترنت التي تدرس وضع المراهقين الشاذين وكومةً من النصائح الأخرى باستشارة علماء النفس في بعض المجلات والذين لا يمنعون الانتحار أما والده فهو يرجح قطيعةً عنيفةً كالصدمة الكهربائية.أن يقول له: «فلتلقي بنفسك في البحر علَّ هذا يغيرك.» فناتان يحب مانون جداً ومتعلقٌ بألعاب الفيديو المعتوهة ما عاد لديه المزيد من الوقت.

دار حوارٌ طويلٌ بين لويز ووالده حول العنف وأول حزن يرافق الحب والمثلية لدى المراهقين والهرمونات وحقيقة الاستمناء.كما تطرقا «للفيس بوك» ومقارنة أعوام الثمانينات مع أيامنا هذه، وهكذا أفضى الحديث إلى أن يلتقي ناتان مع راف ويخبره وجهاً لوجه، بطريقةٍ أو بأخرى أنه تورّط في ردبٍ لا نور يلوح في النهاية باختصار «لا أمل» «no hope»، لابدَّ أن يلخص الوضع بأمرٍ واضحٍ وصريح: انسَ!

ضرب ناتان موعداً مع راف عبر رسالة: «غداً في تمام السادسة مساءً في حديقة رودان»، آثر راف «جزيرة سان جيرمان» بحدائقها الخلّابة. لا بد أن خُيل إليه أنه يود لقاءه لتسكعٍ شاعري يربطهما مجدداً على دروبٍ ضيقةٍ تغمرها زقزقة العصافير وأزهار الحقول.

لطالما كان راف ونزهاته محل سخريةٍ بالنسبة لناتان وأصدقائه، حين كان يروي طواعيةً أنه يتنزه حالماً وحيداً في جنةِ عدنٍ تغفو على ضفاف نهر السن، فيجلس على مقاعده المفضلة الغائبة تحت العرائش مثل النساء المسنّات اللواتي ينثرن بقايا الخبز طعاماً للعصافير.

قال ناتان في سره: إنه أسوء مكان يتحطم فيه الحلم المشرئب في فؤاد عشيقه، ستكون كلماته في مسامع راف كليلةٍ جليدية انبثقت على حين غرة على الرياض متعدد الألوان لتبدد عذوبته العطرة إلى الأبد.

إلا أن ناتان اطمأن لفكرة القطيعة في أحضان منظرٍ خيالي يسكنُ في جنةٍ نباتية تعانق بوحشيةٍ ضفاف الماء، كزورقٍ يهدر بأنغامِ غابةٍ عذراء في قلب النهر. مشهدٌ كئيبٌ ضمن ديكورٍ مسرحي حيث يلوح اليأس والدموع كأوهامٍ مبعثرةٍ.

التقى ناتان وراف على ضفاف نهر السن، عند رصيف محطة «ستالين غراد» ودخلا الحديقة عبر جسرٍ ضيقٍ بأجنحةٍ حمراء تعبر الذراع الصغير للنهر.

بدا راف مثل «Justin Bieber» و«Marilyn Monroe» بنظارته السوداء

وخصلات شعره الشقراء التي تفلت من قبعة ردائه الرمادي. كان يحمل أيضاً حقيبةً على ظهره. تبعه ناتان، سارا في صمت حتى توسطا الجزيرة فاتجها غرباً بين الحدائق المغلقة وحدائق «ميسي كول»(*) حتى وصلا حدائق خيالية.

يسير راف واثقاً في متاهة تلك الدروب المبلطة التي يبتلع نصفها العشب المجنون والأزهار المحيطة بالأشجار التي تتدلى منها الثمار، حول مستنقعات الضفادع وخلايا النحل المقطرة عسلاً.

تعلو بعض صنارات الصيد السياج، هناك بعيداً على طول الضفة الغافية على الذراع الطويل لنهر السن، فتلوّح بوجودٍ غير مرئي في مثل هذه الساعة.

لا يرشح صخب المدينة إلى هذه الغابة المقنطرة المتراقصة بلحنٍ مرتجف تعزفه ريح المساء اللطيفة في أوركسترا من حفيف السرخس وأوراق الشجر تتخلله زقزقة العصافير وطنين النحل.

خاف ناتان تلك النحلات لدرجة أنه ود الهرب بأقصى سرعة لكن راف طمأنه قائلاً أن النحل لا يلدغ أبداً وسط هذه الأزهار التي تلعق مئونتها. كما أضاف أن ذكور النحل غير مؤذين وأن إناثها فقط من تلسع بإبرها لتحقن سمها في الجسد ثم تستحق بعد ذلك عقوبة الموت.

وجد ناتان نفسه برفقة راف وسط غزارةٍ خياليةٍ لتلك الحدائق العجيبة، بأحضانٍ فوّاحة لخلايا حيّة متكاثرةٍ و لعلها عدوانية تعانق سرداقً خشبي حُفر فيه مقعدان متقابلان من جذوع أشجار الصنوبر، بالكاد تتخلل أنامل الضياء في هذا الوعاء الفخاري، ليرخي ظلاً رطباً صاخباً يوحي بوجود قرودٍ أو حيواناتٍ متوحشة.

اتخذ كل منهما له مكاناً على أحد مقاعد هذا الكوخ الذي أعاده لذكرى كوخ الأطفال المشيّد على أشجار حديقة رودان.

(*) حدائق ميسيكول: حدائق مليئة بأنواع من الأزهار الغريبة في باريس.

ما عادت الغابة تلقي بظلال الخوف في قلب ناتان ولا حتى تلك الكلمات التي حضرها ليطلقها وجهاً لوجه مع هذا المزعج راف فيلغيه تماماً من حياته ويتخلص منه أخيراً، فبدأ حواره الصغير:

- راف، رغبت بلقائك لأخبرك أنني...

قاطعه راف: - صه! أعرف ما تريد أن تقول، إن وجودي يثقل عليك وأن لا جدوى من إلحاحيَ الشديد وأنك تحب الفتيات. صدقني ما قابلتك لاستمع لمثل هذا الهراء. أردت أن تكتشف هذه الحديقة أو بالأحرى هذه الجنة التي تنشلنا للحظات من العالم.

فتح حقيبة ظهره وأخرج زجاجةً صفراء ضاربة للبرتقالي ثم جلس بجواره قائلاً:

- أحضرت شامبانيا ..

ذاك اللون الأصفر الضارب للبرتقالي ما كان سوى الغمد المطاطي الذي يحفظ رطوبة الزجاجة.

أجاب ناتان راسماً ابتسامة عريضةً كما لو أنه يستمتع برفض هدية هذا المزعج:

- يالسوء الحظ! أنا أكره الشامبانيا .

- اعرف ذلك فقد أخبرتني سابقاً ولكن هذا المشروب مميزٌ جداً، فهذا «clicquot veuve» والحقيقة أنني غافلت والدي وسرقته.ليس كالشامبانيا التي تعرف إنها شامبانيا «بقبلةٍ فرنسية» تترك في الفم لذةً فيها شيء من الجفاف لا الفظاظة.

أضاف وهو يفتح الغمد:

- لا أرى بهذه الحياة سوى الفظاظة فإما بياضٌ ناصع أو سوادٌ حالكٌ، لا تدرجاتٌ و لا حتى تناغمٌ سريٌ ولعل المظاهر التي طالما ظننا أنها مثيرةٌ للاشمئزاز تكشف عن متعٍ ساحرةٍ.

أدرك ناتان إلام يرمي بالقول لكنه استساغ التشبيه رغم ما يضم من إزعاج.

فك راف شريط السدادة ثم فتح الزجاجة لتتدفع الرغوة شلالاً ينسكب عند أرجلهما على البلاط الحجري. مدَّ راف لناتان الزجاجة قائلاً:

- تذوق هذا، ليس معي كؤوس فلتحتسي من الزجاجة نفسها.

داعب سائلٌ عذبٌ وحلوٌ بطعم الفاكهة الحليمات الذوقية في فم ناتان، رشف ثلاثة كؤوس دهاق، فهذا لا يشبه في طعمه أبداً تلك الشامبانيا التي يعرف.

مرر الزجاجة لراف الذي حذا حذوه وأعادها له مجدداً وسأله:

- ماذا إذاً؟

- آه راف! لقد راقت لي هذه الشامبانيا، أخشى أن تفرغ الزجاجة.

- لا بل أنا واثقٌ من ذلك. أتدري، يقول والدي أن هذه الزجاجة من أجل جدتي، فطعمها حلو المذاق يروق للفتيات. يا له من أحمق!

سرت في جسد ناتان حرارةٌ غريبة ودغدغةٌ داعبت رأسه بشعورٍ لطيفٍ وناعمٍ كالقشعريرة، تابع الشرب محتسياً السائل العذب من الزجاجة.

نزع راف قبعته فعكس اللون البلاتيني لشعره الحريري ما تبقى من نور النهار. تساءل ناتان في سره ما الذي يجعله يتأمل هذا الانعكاس، لا بد أنه ثَمل، فمرر الزجاجة لراف، ملقياً اللوم على نفسه أن أطلق العنان لنفسه لتأخذه هذه السينما عوضاً أن يقول له ما حضر وأن يجتث السوء من حياته.

- راف...

بحبشٍ راف في حقيبته عن شيء آخر يرافق الحفل، بعض المشمش والفاكهة وقال:

- غسلتها الواحدة تلو الأخرى فأنا أعرفك حق المعرفة.

تقاسما الفاكهة وسال عصيرها الكثيف ممتزجاً بفقاعات الشامبانيا. لم يطرق ذاكرة ناتان طعمٌ يفوق هذه اللذة، علاوة على ذلك

أحاسيس فياضة خارج فمه، إحساسٌ يدفعه ليضمَّ أشجار الغابة كعريشةٍ خضراء ويذوب لذةً في عطور الفانيليا والياسمين والميموزا.

يا للغرابة! كما لو أنه يعيش حلماً هندياً. أجل لابد أنه في حلم، لقد استعذب حرارة ذراع راف يلتف حول كتفيه وأنفاس لهاثه الدافئ ذو طعم الثمر وتلك الرطوبة لشفتيه اللتين أطبقتا عليه بمذاقهما الحلو كالعسل الممزوج بالمشمش لا بد أنه يحلم...

فالضجيج القادم من الشوارع، لابل تلك الكلمات التي تتردد من حوله لا يمكن أن تكون حقيقية. تتضرع الأصوات للرحمن الرحيم، تتحدث عن المظاهرات والثورة. ميَّز من هذه الأصوات الثائرة، صوت عبد الرحمن وأحمد ومصطفى. فتح عينيه بخمولٍ استحوذ عليه بعد نومٍ عميقٍ دام لأكثر من 24 ساعة خلال ليلة الخميس، تفصلها لحظات بلادةٍ ترافق التفكير بياسين ووجبةٍ هزيلةٍ وغفوةٍ في الظل.

صحح من جلسته على الأرض الإسمنتية واتكأ على الجدار ظمآناً. استدار جانباً فكان إلى جواره شابٌ آخر رآه مرةً يمشي في سوق «شارع أبو طالب» على مقربةٍ من المترو، سأله عن الساعة، لعلها الساعة الثانية بعد الظهر. لم يسمع جمعة تكبير المؤذن لصلاة الجمعة في السجن.

إنه يميز الآن زمجرة حشدٍ غفير، إن الصوت آتٍ من الشارع: «ارحل أيها الضابط! افتحوا الأبواب! شرطة حسني! شرطة فاسدة!» ظن جمعة أن الأرض تدور بالعكس. هذه ثورةٌ حقيقية! اجتمع كل المعذبين وضحايا الإهانة والابتزاز أمام فرع التحقيق لحارية المخبرين. لو تغلبوا عليهم لغدا لهم عالمٌ جديدٌ.

قُبض على الشاب الذي يجلس بجواره خلال الليلة الماضية ورُمي في السجن. قال له كما أنه يلقي قصيدةً حماسية بأن هذا «اليوم شديد الحماس هو «جمعة الغضب» وأن ملايين الثائرين وطئوا الشوارع مدججين

بالشجاعة. وأن الإسفلت تحت أقدام هذه الجحافل سيغدو جمراً وسينبثق اللهب من قلوبهم كالرماح فتلتهب مصر ناراً تطهرها من أعمال المجرمين والمخربين المشينة، حتى الأهرامات ستنتفض وتخلع ملك القذارة عن عرشه كفاكهة عفنة عن غصنها. والله على ما أقول شهيد.»

فجأة، طغت الطقطقة المصمّة لقاذفة القنابل المسيلة للدموع على جلبة الجموع الغاضبة لبضع لحظات ثم انبثقت من جديد بحماسٍ أكبر دفع السجناء للوقوف وتكرار الشعارات بجوقةٍ تبثُ الفرح في أرجاء السجن الذي ما عرف الفرح يوماً. لم يدم الفرح طويلاً!

دوت الطلقات الأولى لأسلحةٍ أوتوماتيكية، يقتل الرجال ذوو الزي الأسود المتظاهرين، من داخل المبنى متوارين خلف النوافذ ربما يدوي صدى الانفجارات في القبو. ساد صمتٌ ذعرٌ بعد الرشقات الأولى وهيمنت فكرة أن تتشتت الجموع حاملةً الجثامين.

نال الإحباط من بعض السجناء، أمسك مصطفى رأسه بين يديه، وآخر توقع أن يغادر المتظاهرون أو يلقون حتفهم عندها سيهتم الحراس بأمرهم. أما الشاعر المهووس بالجمر واللهب، فقد عبر عن استعداده للموت شهيداً. لم يكن جمعة مستعداً لذلك أبداً، فهو يظن أنه سيتحاشى الطلقات متوارياً خلف جثامين الشهداء. إنه يرغب بالحياة بل يرغب بالخروج من هذا الجحيم واستنشاق عبق النيل، قبل أن يذهب ويجلس عند رأس ياسين ويخبره بأن المصريين يلقون مصرعهم بالمئات بطلقات الغدر، لكن مصر الولود ترسل غيرهم وغيرهم، الحرب لن تحط رحالها والفوز حتماً من نصيبهم.

أُطفأت المصابيح الثلاثة في الممر وغار السجن في عتمةٍ حالكة أعمت بصائرهم.بدأ الجميع يهمسون كما في غرفة يخلد فيها الأطفال للنوم. بحثوا عبثاً عن ما يلقي بصيص نور كولاعة أو عود ثقاب ولكن كلاب السجن أفرغوا جيوبهم بعناية من كل ما يمكن سرقته.

تـرى هـل يغمـض عينيـه أم لا في هـذه العتمـة الحالكـة. ركـب جـنح الخيـال فرحـاً بـشمس كـانون الثـاني اللطيفـة الـتي تُبجّـل ألـوان الفاكهـة والأقمـشة المتراميـة في أسـواق دار الـسلام، وتـسبّح بجمـال أزهـار النيـل وحجاب فاطمة أخت عزيز وعينيها، تستحي مـن سـحب الـدم المتدفق علـى الأرض أمام قسم التحقيق.

أطبق الظلام الدامس على هذا القبو كأغلالٍ لا مفتاح لها وعجـزت أعينهم عن اقتحامه، فاستسلموا له، لا حيلة لهم في مواجهة ليلِ هـذا القبر حيث ينشر الموتُ القادمُ الرعبَ ولا يعد بالجنة.

امتـزج الخـوف بغياهـب القـبر وصـار محـسوساً، هنـا يمكنـك لمـس الخوف كمادةٍ واضحة، الخوف من الخطر الذي قد ينقضُّ في أي لحظـة، لا أحد يدري من أين ولا متى ولا كيف.

مـا يزيـد الأمـر سـوءً أن العفونـة الـتي طوتهـا العـادة مـع النـسيان استيقظت من جديد، لتمتزج رائحة البول والقذارة مع جزيئات الغاز المسيل للدموع المتسربة فتنتشر رائحةٌ أسيدية حارة.

تـضخمت الأصـوات: أنفـاس الجـيران، همهمـات المـساجين وسـعال المسلول حتى نباح الكلب في الخارج ثم عاد الهياج مجدداً أمام فـرع التحقيق مع صخبٍ هائلٍ للشعارات الـتي عـادت مـن جديـد. فجـأة طقطـق زجـاجٌ قـد تفجر تلاها طقطقةٌ مصمّة للأسلحة الأوتوماتيكية، صرخاتٌ ثم زجاجٌ آخر قد تشظى، نهض الجميع في ليل هـذا الجحيم الحالـك، انضموا لبعضهم، تلامسوا، أمسكوا بأيدي بعضهم البعض حتى يحافظوا علـى تـوازنهم وسـط هذه البلبلة المصمّة المذهلة، إنهم يشعرون بكل اهتـزاز لملايـين الأصـوات في الخارج التي تكبر الله. ميّز جمعة من بين هذه الأصوات: *يا رجال الشرطة، سنتخلص منكم!* فردوا عليهم برشقتي رصـاص، ثـم سمـع مـن داخـل المبنـى: *لقد عادوا، إن عـددهم هائل!* تحطّم زجـاجٌ ثالـث، انهـال وابـلٌ مـن الحجـارة بطقطقـةٍ جديـدة علـى الأثـاث وعلـى الأرضيـة فـوق رؤوسـهم تمامـاً، رافقهـا

ضربات متتالية كما لو أن كبشاً يصطدمُ ببوابة حديدية ثم أعيرة نارية أخرى، صرخ الحراس بذكرٍ: «*بسرعة! بسرعة! من هنا! علينا الرحيل! علينا الرحيل!*» ضربة أخرى على البوابة، وسع الفضاء جلبةٌ هائلة لكأن الأرض بأرجائها عبرت عن هياجها وفرحها،اقتحمت الحشود الثائرة الجحيم الذي لم يعد جحيماً، قلبوا الأثاث وكسروا باب القبو، كدفقٍ من أشعة الشمس دلف ليبدد سواد هذا القبر بالنور الساطع للنهار وفاض حشد الثائرين كالأمواج، فأمسك بهم السجناء وشدوهم ليقبلوا أياديهم عبر القضبان.

صرخ أحدهم: *المفاتيح! اعثروا على المفاتيح!*

تردد النداء من فيهٍ لآخر وارتقى الأدراج، في هذه الأثناء، عانق جمعة كل من رافقه في الزنزانة، الواحد تلو الآخر حتى المثيرين للقلق الذين لا يعرفهم، سيشمل العفو الجميع حتى من ذبح طاعناً بالسن أو من كان مخبراً، التهم الحماس الملتهب للخلاص كل الخوف وكل الأخطاء. أخيراً، لاحت المفاتيح وفُتحت الأبواب الموصدة. قال أحدهم ذو الصوت الأقوى: *اخرجوا الجرحى والمرضى أولاً!*

ثم تلاهم الأصحاء ومنهم جمعة الذي كان بوزنٍ خفيف يسهل عليهم حمله على الأكف وتمريره من يدٍ ليد كغنيمةٍ لنصرهم، حملوه عبر الأدراج حتى عتبة باب فرع التحقيق حيث بدا الحشد الهائل بانتظاره، بانتظار جمعة ابن المزابل، ليباركوه في وضح النهار كفرعونٍ حقيقي.

توافد الآلاف في جمعة الغضب، قادمين من الحي العلوي لدار السلام وكذلك من الحي السفلي، تخطوا كل الحواجز لينقضوا على جحيم الرجال ذوي الزي الأسود فيقتلعوا هذا الطاعون الذي فتك بالأرواح منذ عشرات السنين. ها هم يجازفون بحياتهم ليتخلصوا منهم.

اجتمع الجميع صعاليك الأزقة النتنة وطلاب عين شمس أو الأزهر، الموظفون أرباب الأسر، أمناء السر وطلاب المدارس، العاطلين عن العمل

والسائقين وحتى الباعة المتجولين، اجتمعت اللحى البيضاء مع أطفالٍ بمقتبل العمر. الكل منزوع السلاح لا بل مستعدين للاستشهاد تحت الرصاص. كما تخيل جمعة ها هي برك الدم بسحبٍ بنية اللون تلطخ الطرقات حيث تدهس الجموع.

لم يكن عدد القتلى بالرصاص محصوراً بعد، البعض يقول عشرة والبعض الآخر يقول عشرين. لاحقاً تكشّف للجميع أن أربعة وعشرين متظاهراً قد لاقوا مصرعهم برصاص في معركة «فرع تحقيق دار السلام»، حتى كُشف عن وجوههم وأعلنت أسماؤهم: إسلام إبراهيم، علي نبيل عبد السماح، أحمد سمير، منصور فتحي،... تعرّف جمعة على أحدهم غلامٌ ذو ثمانية عشر عاماً، اسمه محمد عبد الله، كان يصادفه بين الفينة والأخرى عند مصطفى لحلاقة شعره وذقنه. كم كان يفتخر بهوى الفتيات اللواتي يهمن بعينيه الخضراويين وتلك النظرة الناعمة الكئيبة.

خوي فرع التحقيق من الرجال ذوي الزي الأسود اللذين فرّوا هاربين ذعراً، فاندفعت الجماهير لتدمر كل شيء وينقلون بفرحٍ الأثاث ضمن مجموعات تتالى دون نهاية حاملين الكراسي والخزائن وكل الأثاث المتواجد، ليعثر عليه لا محالة يوم الجمعة القادم في «سوق البراغيث» في مدينة الموتى. استحوذ بعض اللصوص من عصابات المخدرات على الأسلحة والذخيرة أما الطلاب المتطرفون فوضعوا أيديهم على الأرشيف.

بلحظاتٍ فقط نظّفت النملات الحاملات الوكر الجهنمي لمصاصي الدماء عن بكرةٍ أبيه، نسيت النملات أن مصاصي الدماء خلفوا وخماً من وسخ الإوز ليبقى جرحاً مفتوحاً بتقيح آلاف الذكريات المرعبة، رمزاً لا يطاق لحكم الجلاّد.

رأى جمعة بضعة رجالٍ يدخلون حاملين صفائح من المحروقات وشاعت كلمة بنزين بين الجموع.لاقى جحيم دار السلام مصرعه أخيراً بألسنة اللهب، وسط أمواجٍ من الابتهاج تهللت لصورة الشر الذي حُذف إلى

أبد وتهللت لهذه الصورة جموعٌ هائلة في القاهرة والإسكندرية والسويس والمنصورة وكل أرجاء مصر.

ذُهل جمعة أنه ما زال على قيد الحياة وأنه ينعم بالحرية، لعل كل ما كابد من شرٍ وألمٍ وجوعٍ منذ رحيل والده قد اضمحل...

في حريقٍ شهواني لحلمٍ هندي، تبطل ملامسة الموت هذا الشعور المضني بالفراغ ويخفف من وطأة الملل والأعمال الشاقة التافهة و أولها الاستيقاظ صباح كل يوم. إلا أن مانون لا تسأم من تكرار أن كثرة ملامسة الموت سيجعله بالنسبة إليه أمراً مألوفاً لدرجة أن يتخطى خوفه فيستسلم له.

أرسلت له مانون روابط لمواقع تعرض أمهاتٍ محزوناتٍ يروين مأساتهن بأن عثرن على أبنائهن ذوي ثلاثة عشر عاماً، و قد لاقوا مصرعهم مخنوقين في غرفهم بأحزمة أو أوشحة، بعد أن تعلقوا بالأسقف النصفية، وهن لا يعرفن هل أرادوا الموت أو مجرد اللعب. فهذا ليس مجرد لعبة ولا ميتةً عادية: لقد آثروا ترك هذا العالم لسبب أو لآخر دون أن يعلموا إلى أين يودي بهم هذا الانطلاق.

لم يعد ناتان يرغب لا بالحياة ولا بالموت، لا يميل بشدة إلا لعالم الأحلام المتبدل حيث تتألق الأحاسيس بمهرجانٍ غريب. يفضل ألا يحيا ولا يموت، فللموت تبعاته التي يمقتها بدءاً بألمٍ يُفجع الآخرين والجسد الذي تلتهمه الدويبات آكلات الجيف، ناهيك عن الليل الأبدي خالي من الأحلام. كما أنه قرر أن يأخذ احتياطاته لئلا يرزح تحت الآلام التي كابدتها تلك الأمهات.

في كل مرةٍ، يُقدم وحده على «الحلم الهندي»، يخال أنه ربانٌ يتحقق من قائمة الفحص، فيدقق على طول الوشاح ويتأكد من ضبط منبه I.phone. كان يدرك أنه ليس في منأى عن حادث لكن احتمال

حدوثه أضعف من أن يحرم نفس متعته الوحيدة بما تعده من أعاجيب تزدهر بانعدام الجاذبية المرافق للحلم الهندي فتمحي الشك الضئيل لهذا المرح.

منذ ذلك الحين وناتان يلقي نفسه لهذه الوعود عدة مرات باليوم ففي كل تحليق نحو عالم الابتهاج ينسى ما سبق فهو لا يسجل ما يراوده من أعاجيب. رغم أن بعض الصور تستمر قوية بما يكفي لئلا تُمحى من ذاكرته لكنها تفلت من السياق المتهافت للحلم. فمازال ذاك الحلم يطرق مخيلته حين رأى مطراً من ألقٍ ينوِّر قاعة الصف، خلال درس الرياضيات في حين فرّ التصميم البياني لمتباينة جبرية من اللوح وحلّق كفراشةٍ في ليلةٍ مرصعة بالنجوم.

تتسع المسافة بينه وبين مانون وكل شيء حوله يرهق كاهله أكثر من المتباينات الجبرية إلى المسيحية القروسطية ليأتي إلحاح مانون المتزايد الذي سئمه ناتان وسئم تحرياتها عن آثار اختناقٍ حول رقبته متسائلة عن سر إقفاله للجوال. تضنيه بكثرةِ سؤالها عن غيابه عن صفحته على «الفيس بوك» وكيف يقضي أوقات فراغه وبالحقيقة فهي تجده أقل تجلياً بالحب وبشكلٍ واضح، كم تمنى ناتان لو بوسعه أن يشرح لها أن المادية الوحيدة التي يتقبلها هو ثقل جسده المعلق بالقضيب، ما تسعى جاهدة ليفارقه. تمنى لو أنها تمد له يد العون، لكن على العكس تماماً إنها تبتعد عنه أكثر فأكثر، حتى راق له أن يرتعد بين يديه بقايا ذكرى تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر عوضاً عن جسد مانون الدافئ. تساءل في سره عن السبب ربما لأنها ظهرت ثم غابت، كشعلةٍ التهمها كلور المسبح. غادرت لم تترك وراءها لا اسماً ولا صوتاً ولا حقيقةً سوى بقايا صورٍ حملها في ذاكرته بجوار ملامسةٍ لعلها غير إرادية ليده. وهكذا اكتفى لبعضٍ من الزمن بهذه المتعة الغير مادية التي تحرضها ذاكرته وحيداً تحت دفق ماء الدوش المنسكب على جسده. كان يظن أن ذكرى تلك الفتاة وأحلامه المرتبطة بها

خيرٌ من ثقل جسدها ووطأة كلامها في الحياة الحقيقية. رغم ذلك، شيءٌ غامضٌ يحرّقه شوقاً لأن تتجسد هذه الفتاة مجدداً أمام ناظريه لا يفصلهما سوى بضعة أمتار فيتذوق طعم المغامرة. لعل هذا الشيء الغامض هو حادثة «جزيرة سان جيرمان» والطريقة التي غافله بها راف ووصل لمراده أو كاد يفعل.

إلى أي حد كان مكر الكحول هو الدافع لتلك المتعة التي تلذذ بها للحظة فقط، لعلّ الشامبانيا وسّعت طيف المتعة أو سلمته مفتاح الباب حيث تفلت رغباتٍ مجهولة؟ رجح ناتان فكرة أن طيف المتعة قد زاد اتساعاً، فهو ما أحب الشخص، لكنه أحب شراهة تلك الأحاسيس التي تملّكته، تلك الحرارة في رطوبة المساء، الماء المتدفق على شفتيه والنعومة التي لامست لسانه.أُصيب بالاشمئزاز حين تذكر، بزوال الثمالة، أن تلك المشاعر أتته من راف لكنه ارتجف لفكرة أننا بزوال الثمالة أي بحالة الوعي المطلق تحت سيطرة الذات لا نستخدم سوى جزءً يسيراً من الغنى الساكن في أذهاننا تمثله الحقيقة بشكلٍ ضعيفٍ.و مع ذلك ولأجل المفارقة فهو يقدر متعته بالهروب الذهني أما فيما يتعلق بالرغبات فهذا يورطه بالتزامات جسدية مرهقة ولكن إذا ما اعتمد على رزانة الواقع فهو لا يميل إلا للفتيات باستثناء تلك الأمسية المنفصلة عن العالم و التي كان فيها ضحيةً لعملية إغراءٍ مخادعة برّاقة.

رغب بلقاء تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراويين ليبدد غموض ذاك الاضطراب الذي اعتراه. أثقلت مانون كاهله بحبها الجلي للعيان وقلقها الذي لا تتحفظ بإظهاره، طوت بحفيظة الأم الثائرة وعتابها تلك السلاسة والعذوبة التي تتطلبها رغبته وتلك الشفافية التي تسبح بها الروح ظمآنةً لماء رقراق يغلّفك ويحميك، يحبك دون أن يرهق كاهلك. تتوق الروح لما يتغمد الذهن برقةٍ فيلاقي متعةً لا يشوبها أي عائق ولا تصطدم بأي خشونة. لا يرفرف الحب دون جناحين يحملان

الجسد لكمالٍ فقده منذ زمن بعيد، منذ الولادة، لعله يتوارى أحياناً لكنه جاهزٌ دائماً ليتدفق، أمل أن يلاقيه بين يدي الفتاة السبّاحة ذات المايو الأبيض التي تختال برشاقتها وخفة حركتها أثناء السباحة حتى حين ارتقت سلم حوض السباحة. يوحي ذاك الجسد لبني اللون المبتل بأنه طيفٌ لا مادية فيه. حرَّض حضورها المتلاشي رغباتٍ هائلةٍ عابرةٍ كالحلم.

ظل أسير حلمه بأن يعثر عليها مجدداً، قصد بعد أسبوع تماماً المسبح، يوم أربعاء في تمام الثالثة مساءً. تخيل أن ترقص حورية الماء البالية مجدداً وترتقي السلم بوثبةٍ واحدةٍ ثم تتجول حتى تحملها خطاها لتجلس إلى جواره فتتلامس أيديهما صدفةً!

لن يكون راف المزعج هنا. سيكون وحيداً، عندها سيترك يده تعانق يدها، ويسألها إن كانت تتردد غالباً إلى هنا من أجل السباحة كالسمكة.

يا للهول! ليست هنا! هَرع بعد المشالح، وجال بناظريه الحوض، ليست هنا!

قطع المسبح مرتين بسباحة البطن، ولم تأتِ بعد! غاص مجدداً وقطع الحوض مرتين، تجاذب أطراف الحديث مع فتيةٍ من مدرسته بالكاد يعرفهم، راغباً بدفع عقارب الساعة حتى وصولها. خاب أمله، عاد إلى المشالح ثم إلى المنزل ثم إلى خزانة الثياب التي خلعت عنها هذا الاسم ليصبح مشنقة، راغباً بالنسيان، نسيان «إغواء الجزيرة» و«الفتاة الهاربة».

يلوذ بالحلم الهندي هارباً من الملل الذي يفترس أيامه وما يكابد من ضيقٍ يلقيه الآخرون في طريقه، لا شيء في هذه الحياة يساعد على النسيان، لا شيء أبداً.

قال في سره، ذاك اليوم، حين حط قدميه على الأرض، أن أمله ضئيل بالعثور على الفتاة ذات المايو الأبيض، أو لعله لن يعثر عليها أبداً فليس بحوزته من دليلٍ يرشده إليها سوى هذا المسبح الذي لا تتردد

عليها كثيراً على ما يبدو. لن يتمكن من التردِد على المسبح كل يوم ما بين حلمين أو درسين ولا أن يحتمل روائح الكلور وسط صخب الصبية، لاهثاً وراء أملٍ مجنونٍ بالعثور صدفة على حورية الماء. سيكتفي بأيام الأربعاء، عندها ربما تتالى السباحة والرقص أو المسبح والخيار اللاتيني مع آلاف النشاطات الأخرى المحتملة، ولكن الأربعاء القادم سيكون في «الأقصر» والأربعاء التالي في «القاهرة». إذاً لن يراهن على حظه الأول قبل ثلاثة أسابيع.

لن ينسى راف أيضاً الذي كان له الفضل بإقناع ناتان بالضرر الذي يرافق نشوة الكحوليات إذا ما قورن ببهجة الحلم الهندي. فالمشروبات الروحية مخادعة تحقن ضررها في ملامستها للواقع وجعله مقبولاً لا بل مغرياً، هذه المشروبات السحرية التي تجمع بين الأعشاب المؤذية والفضلات تأسر ما ينتابنا من حزنٍ وألم وتطلق العنان لأوهام الهناء والحبور، تلقي النور على مساحات الظلام التي ترتعد لها فرائصنا، فهي حقاً ليست مخادعةً وحسب وإنما مؤذية إذ تُفسد الجسد وتحيله سقيماً وتفتح بوابات الوجدان الأحمق على مصراعيها لتلقيك في واقعٍ لا حدود لتفاهته لا بل في واقعٍ منفرٍ حقاً، لتغرق في أعماق الخيانة والخضوع وتصافح السيئات.

آثر ناتان دائماً الاستسلام لقناطر الحلم الهندي بالعوالم الجديدة التي يقتحمها وما أقدم على مبادلة هذا المجون بالآخر. للأسف، غرق راف بالمجون الأسوأ. بعد «حادثة الجزيرة»، أخبره ناتان جهارة في اليوم التالي أنه لم يعد يرغب لا برؤيته ولا بسماع صوته ولا حديثاً عنه، كما حذفه من قائمة جواله ومن صفحته على «الفيس بوك» ورمى إيميلاته في سلة المحذوفات.

لم يعد راف يلح ولا يختلق صدفة لقائه في ممرات المدرسة، ثم أخبره نيكولا أن راف غرق بالمشروب لثلاثة أيام متتالية، منذ بزوغ الفجر حتى سكون الليل، كان ثملاً في الدروس، يحتسي من مطرته بين الحصص لا

الشامبانيا فحسب وإنما «رافنينسبورغ» «كوكتيل من جت 27 والبيرة ومارتيني بلاك».

يغفو في المقعد الأخير في الصف مما أجبر الإدارة على طرده لمدة ثلاثة أيام، ومنذ ذلك اليوم لم يره أحد. تساءل ناتان في سره، أليس في هذا الثمل المفرط نداءً للمساعدة: مهما يكن لن يتجاوب معه، لم يعد يريد حبه.

تخلّص من راف وانفصل عن مانون وتولع بشرارةٍ غائبة، إنه الآن وقبل رحلته المضنية إلى مصر حرٌ من كل القيود، حرٌ بأن يحلم...

بأن كل شيء سيتغير، سيحب أخيراً هذا العالم حيث ترعرع، تحدث الألوان التي ألقاه حريق فرع التحقيق ألوان الشمس الغائبة المبعثرة في الأفق وراء النيل، لكن لا وقت أمام جمعة ليتمهل عليه أن يقصد المستشفى حيث طلبت منه السيدة هناك أن يعود ليستعلم عن ياسين.

يداعبه أمل أن يسرد على مسامعه حكاية المعركة والحريق، لم يعد الوقت مناسباً ليبحث عن رجب وحسان في الفوضى التي غرقت بها دار السلام الثائرة.

قصد الكورنيش راكضاً ثم تعلق بدرجة بالباص كالليلة الفائتة ثم أفلت مُحلّقاً أمام مستشفى «قصر العيني»، سارع إلى الباب المتحرك ليجد نفسه أمام قاعةٍ من الآلام المُقلقة التي كسرت الروتين بهياجٍ جنوني. تتخبط القاعة بجموعٍ هائلة ملتصقة بمكتب الاستقبال، تتعالى أصوات عائلات بأكملها.

تصرخ زوجاتٌ وأمهاتٌ بأسماءٍ ويلوحن بأوراق بحثاً عن الأخبار. تلاها رقصة باليه لنقالة المرضى والتخبط العشوائي للممرضين في الممرات لنقل رجلٍ دخل للتو يقطر دماً والشحوب في وجهه ينبئ بموته. قال جمعة في سره لابد أن جمعة الغضب المتوجة بالنيران قد حصدت أرواحاً عديدة لا في دار السلام وحسب وإنما في أرجاء مصر.

حافظت السيدة البدينة ذات الرداء الأبيض على هدوئها فلم ترفع صوتها ولم تسرّع حركتها أمام هذا الوابل من الاستعلام عن هذا أو ذاك المتظاهر الجريح أو المتوفى والذي تم اصطحابه إلى هنا حسب ما قال هذا أو ذاك الشاهد، في فيضٍ من الالتماسات المحزونة والمطالبات العنيفة، اكتفت بتسجيل الملاحظات وتفحص السجلات لتجيب دائماً تقريباً أن الأسماء لم يتم تسجيلها ولم يتسنَ لهم كما هو معتاد تدوين أسماء العدد الهائل من الجرحى في حالات خطرة، لذا عليهم التحلي بالصبر والانتظار بل يُفضل الجلوس ريثما يتم الإعلان عن قائمةٍ بالأسماء.

توجس جمعة خيفةً من تخطي جمع المعذبين إلى تلك الملكة الرصينة، كان يقول ليُفسح له المجال، أنه قد مضى يومان على حمله لمحتضرٍ إلى هنا وأن له الأولوية بالسؤال.

بالكاد ألقت عليه الملكة بنظرةٍ، إلا أنها تعرفت عليه وعادت بسجلها عشر صفحات على الأقل، تتفحص كل واحدةٍ منها من الأعلى إلى الأسفل بقلمها وهي تكرر: «جمعة العلبي.. جمعة العلبي... جمعة العلبي» حتى وجدته أخيراً، ترددت قليلاً ثم أمسكت الهاتف وسمعها تقول: «أمامي جمعة العلبي مرافق الفتى الذي لا اسم له القادم ليلة أمس».

تلاه صمتٌ طويل، كانت تصغي خلاله لشخصٍ لم يفهم جمعة من كلامه شيئاً، أغلقت السماعة وسجلت شيئاً ما على سجلها ثم على ورقةٍ صغيرةٍ مطبوعة ثم أمهرتها بالخاتم قبل أن تسلمها لجمعة. أشارت له إلى المصعد في آخر القاعة وقالت: دع صبي المقعد يرى الورقة واحتفظ بها.

توجب عليه الانتظار مع الناس أمام المصعد وأخذ يتأمل مرافقيه: عائلات مع رضع ينوحون، رجلٌ عجوز بلباس النوم، تعلق بيده أنبوبٌ يرتفع إلى كيسٍ صغيرٍ مليء بالسائل ومعلّق بعصا ذات دواليب، ومجندان بالشرطة يبدو أنهما يخفيان هيئة الفلاحين الأحمقين.

قال في سرّه: «لعلي الوحيد الذي لم يرَ مصعداً في حياته، لا أدري السرعة التي سيقذفني بها إلى السماء».

ثم بدأ يدندن أغنية تامر حسني «الله يباركلي فيك»: الله يباركلي فيك يا أغلى من عيني، الله يخليني ليك ويخلي الدنيا ديه.. الله.. الله.. حبيبي..

فُتحت أبواب المصعد فالتهم القفص الجمع كله، مد جمعة ورقته إلى الصبي. الذي ضغط على الأزرار ورماه بنظرة قائلاً: ارجع إلى الخلف هناك من هم على عجلةٍ من أمرهم، سأخبرك حين يتوجب عليك الخروج.

فوجئ جمعة بمركبةٍ بطيئةٍ تتوقف عند كل طابق، لدرجة أنه لم يشعر بصعوده إلى الطابق الثامن والأخير، لكن الصبي لم يشر إليه بالخروج، وانتاب جمعة القلق، أجابه الفتى بكل بساطة:

- لم أنسك.

نزل القفص مجدداً وقام بمحطة عند كل طابق، ثم حط في الطابق الأرضي حيث تعرف جمعة على القاعة، صرخ الصبي بالناس المتكدسة والتي لا تفسح المجال، ولكنه بعد لم يشر إليه بالخروج، مما زاد اضطرابه ثم وجد نفسه وحيداً مع الصبي، تملكه الرعب الشديد حين هبط المصعد لطابقين وكأنه يقصد الجحيم فصرخ مندهشاً:

- إيه! إلى أين تصطحبني!

خشي ألا يكون هذا المصعد سوى فخاً وهذا الصبي من «الخفر» يريد اصطحابه لسجن يكلفه الهروب منه غالياً.

لم يجب الصبي حتى توقف المصعد وفتح أبوابه على مشهدٍ يشبه قاعة الاستقبال ولكنه أكثر رعباً، حشدٌ من المفجعين، نساءٌ قد أغمي عليهن يتمسكن كيفما كان، أنينٌ وعويلٌ وصراخ غضب ودعاء على ملك اللصوص وأخطر المجرمين.

قال الصبي دون أن ينظر إليه حتى:

- هناك، المكتب اليميني، أعطهم الورقة. الله يحميك.

يغصُّ الممر رمادي اللون خافت النور بأناسٍ صاخبين، يُغلق على بعد عشرة أمتار ببوابة كبيرة من الحديد من جهة اليمين، غرفةٌ صغيرة تعجُّ بالبؤساء بنورٍ خافتٍ لمصباحين حيث عثر على رجلٍ ذي رداءٍ أبيض يجلس خلف المكتب وأمامه كومةٌ من أوراقٍ كبيرة يتفحصها كلما مدَّ له أحدهم بورقة.

يتحدى صوت التلفاز الصغير تلك الصرخات والعويل لينشر دفقاً من الآيات القرآنية يتلوها شيخٌ بصوتٍ مرتعش.

يكرر الرجل ما إن يعثر على ما هو مدونٌ في الورقة أن عليهم الانتظار، فأمامهم عددٌ كبيرٌ من الناس وأنهم سيدخلون بالدور لدى خروج من سبقهم.

لم يفهم جمعة بعد، ظنَّ أن هؤلاء الناس يبالغون بآلامهم ليسمحوا لهم بتخطي غيرهم وأنهم يرجون من هذا النحيب شفقةً أو صدقةً حتى ولو شُفي ابنهم أو أخيهم.

مدَّ الورقة إلى الرجل حين وصل دوره:

- جمعة العلبي، جمعة العلبي. إنني لا أذكر اسماً كهذا.

أنهى البحث وقال:

- ليس لدي جمعة العلبي. لا يمكنني أن أعطيك رقماً. لا بل إنني مستغرب أنهم أرسلوك إلى هنا، لعلهم كتبوا الاسم الخطأ!

أجاب جمعة وسط ذهوله:

- أجل أجل دكتور! جمعة العلبي هو أنا. أما صديقي فهو ياسين الريش! ولكن لم يكن هناك متسعٌ لتدوين الاسمين فسجلت السيدة اسمي أنا.

- بما أنها سجلت اسمك، إذا يجب أن يكون هنا. صف لي ياسين!

- أشقرٌ عيناه كالماء الرقراق وهو أقل طولاً مني.

تأمله الرجل مطولاً قبل أن يتفوه:

– صغير أشقر. لم أرَ أحداً بهذه المواصفات. لعله سُرق. حسناً، اذهب واجلس هناك أمام الباب، وعندما يحين دورك أشرح كل ذلك للممرض، عساك تعثر عليه.

تجمعت ثلاث عائلاتٍ أمام الباب الحديدي، يؤازرن باكيةً. هذا يشبه جنازة، حيث تبتهل النسوة متضرعاتٍ لله أن يتغمد برحمته علي وعبدو وشفيق. آه! فهم جمعة أخيراً أنهن هنا لاسترداد جثمان موتاهن. إذاً هذا الباب الحديدي سيفتح على كومةٍ من الجثث لعل من بينها رفات ياسين ليحمله ويدفنه في مكانٍ ما.

بالحقيقة، لم يفاجأ جمعة فقد كان ياسين يلتقط أنفاسه الأخيرة ليلة أمس الأول ولا بد أن الطبيب عجز أمامه. ولكن ما أقلقه أن السيدة في قسم الاستقبال وصبي المصعد وحتى الرجل هنا لم يخبروه بكل بساطة أن ياسين قد توفاه الله، لأجابهم أنه كان يظن ذلك بل خيرٌ له من البقاء مقعداً أو مختلاًّ، لا بد أنه الآن مرتاحٌ حيث هو، هناك في دنيا الحق حيث الأبرياء والطاهرين، خيرٌ من حياة متسولٍ عاجزٍ جائعٍ يكسوه الذباب.

أخذه الدوار بشكلٍ مباغت فانزلق على الجدار ليجلس على حافة الممر الرمادية. لم يعد يرى ولا يسمع سوى الأنفاس الطاهرة لياسين الذي كان يشعُ بالنور، أول أمس، في الكورنيش حيث تسلل كقطٍ إلى حتفه. تلك الشعلة من نور الساحرة التي حولت الدجاجة الكريمة لمحاربٍ بطلٍ والتهمته شهيداً. لم يبقَ له من ياسين سوى هذا الحلم بشعلةِ نورٍ سعيدة وفخورةٍ تتلاشى عند عتبة براد الموتى على ضفاف النيل.

فُتح الباب الحديدي وكذلك عينا جمعة لتلتقط مشهداً لقاعةٍ شاسعةٍ ببلاطٍ أبيض. طلب الرجلُ ذو الزي الأبيض أن تفسح العائلاتُ المجال لمرور ميتٍ ممددٍ على حمالة الموتى ذات الدواليب التي اكتست بغطاءٍ ملطخٍ بالدم عند الوجه، ثم تبعها زوجين مسنين بوقارٍ صامت. لا تغطي

السيدة شعرها الأبيض بل يزين صليبٌ كبيرٌ صدرها، تترنح متكئةً على زوجها الذي غاب وجهه خلف الدموع، إنهما ينتظران المصعد.

اقتربت العائلة عندما سأل الرجل ذي الزي الأبيض عن التالي، دخلت إلى «براد الموتى» وأُغلق الباب الحديدي وبعد بضع لحظات دوى نحيب امرأة، لتعود «نقالة الموتى» فارغة يدفعها الممرض ودخل «براد الموتى». كُررت هذه العملية مرتين لعائلاتٍ متلاحقة مع ذات النحيب واللعنات عينها. لم يبرح جمعة مكانه، ينتظر دوره على حافة الجدار. لا تراوده سوى رغبةٍ واحدة هي الهرب من هنا وترك جثمان ياسين ليهتم به العاملين في هذا المستشفى، حقاً، إنه لا يقوى على طقوس الموت إلا إذا وافاه كلٌّ من رجب وحسان ليمدا له يد العون، عندها سيحملون الجثمان إلى الحي العلوي في دار السلام ويغسلوه بمياه الصنابير الخاصة للوضوء في الجامع ثم يوارى الثرى في إحدى المدافن، بعد أن ينثروا فوقه أزهاراً مسروقة من مشتل المعادي.

حان دوره بعد مرور آخر موكبٍ جنائزي، اقتحم براد الموتى لتذهله صفوفٌ مصطفة من الأدراج المعدنيةِ المغلقة تماماً ومنفصلةً عن بعضها البعض كتلك الموجود عند الميكانيكي أو المرصص، في كل درجٍ يرقدُ رفاتُ ميتٍ بانتظار أن يصطحبه ذويه إلى مثواه الأخير.

مجلسٌ صامتٌ لعشرات الجثث الطرية تنبعث منها روائح مقززة، مزيجٌ من روائح الكلور والأقدام الوسخة والقمامة والدم.

مد ورقته للممرض الذي قال مستغرباً:

– لا رقم! يلزمني رقم لأساعدك.

– ما من رقمٍ لياسين ولا حتى اسم، دكتور، إنه فتى أشقر صغير، عيناه فاتحتان، حملته أول أمس إلى هنا بعد أن دهسته سيارة شرطة. أرسلتني السيدة في قسم الاستقبال إلى هنا مع هذه الورقة.

– في الحقيقة لا أذكر يا بني دخول جثمان بهذه المواصفات ولكن لو

أردت يمكنك البحث، هؤلاء من ليلة أمس وأمس الأول – مشيراً إلى الجانب الأيسر – وهناك المزيد من ضحايا اليوم بانتظار مكانٍ لهم.

اقترب جمعة، لم تلقِ هذه الجثامين الرعب في قلبه، فمنذ أن رأى جثمان والده، صادف العديد منها مرمية في المزابل، جثامين لأطفال قد لاقوا مصرعهم دون أن ندري لا كيف ولا لماذا.

ليس بحاجة لرفع الأغطية، تبدو الجثامين أطول من ياسين بكثير، والأحذية التي ينتعلونها لا تشبه صندل ياسين.

تحت أحد الأغطية، شابةٌ قد لاقت حتفها تحت عجلة شاحنة فوجهها المسطح المشوه المتلطخ بالدم يروي حكاية مصرعها. وهناك، فتىً بعينين زجاجتين وشعرٍ مصفف بفنون «الجِل» يبدو أنه لم يتجاوز بعد الثانية عشرة. وعجوزٌ بلحيةٍ بيضاء وعينين جاحظين، فقد أسنانه جميعها،تبدو على وجهه دهشة الألم وهول الموت.

سأل الحارس:

– ألم تجده؟ حسناً، إنها ليست المرة الأولى، يا بني. غالباً ما يختفي صغار السن الذين يتعرضون لحوادث ويرمون في الشارع دون هوية.يتظاهرون بالبحث عنهم وهم يعرفون مسبقاً أن أعضاءهم قد سُرقت وهم أحياء وبيعت الواحدة تلو الأخرى، كل شيء العينان والكبد والكلى والقلب، توضع في علبٍ صغيرة ويطوى الحديث عنهم حتى في جنان الخلد.غداً، فليمدني الله بعونه، ستوافينني امرأة أو اثنتين، أمٌّ أو أخت ليسألنني عن أحمد أو محمد...

لم يعد جمعة يصغي إليه فهو على دراية بهذه القصة ولكن الجديد فيها أنه ليس الخفر فحسب من يقدمون على بيع الأموات أيضاً بل انضم الأطباء أيضاً للقافلة، لابد أنهم يقطنون في مدن الأحلام تلك التي نراها في الإعلانات، بعيداً في الصحراء لا تتاح لعامة الناس، فهي ليست بمنازل بل قصور. يركبون سيارات تنطلق كالإعصار مثل سيارات الجنرالات.

إنها المرة الأولى التي يشعر بالإقياء بسبب الرائحة، ها هو طيف ياسين يلوح على ضفاف النيل جاثياً، ينحني قليلاً ليرشف بيديه من مياه النيل، تقول قصةٌ قديمةٌ أن ماء النيل يبعث الموتى، ترى حتى الموتى المقطعين، لا يعلم حقاً، ولا يعلم أيضاً أين هو.

تمتزج صورة ياسين مع دوران البلاط والرفوف من حوله، لم تعد ساقاه تحملانه، انهار...

دون أن يفقد الوعي تماماً في ممر المشالح بالضبط قبل أن يصل إلى المسبح، انبثقت فوراً رؤوسٌ انحنت فوقه، خيالاتٌ متماهية كالضباب كأن ماءً انسكب في عينيه، تتناهى لمسامعه أصواتٌ يعجز عن تميز حروفها، آملاً أن يتوصلوا لنجدته فهو عاجز عن التقاط أنفاسه فهذا الهواء الذي يعبق بالكلور يُلهب رئتيه لا بل يلتهمها.

فجأةً، شعر أنه يرتفع عن الأرض، لم يعد يرى ولا يسمع شيئاً إلى أن فتح عينيه ليرَ مدرب السباحة ينحني قلقاً فوق رأسه ويسأله إن كان على ما يرام. إنه يسمع جيداً ويرى بوضوح، شعر بكمامة الأوكسجين التي وُضعت على فمه وأنفه، أدرك حين نظر من حوله أنه مستلقٍ على الأريكة في قسم الإنقاذ، يلتقط أنفاسه من كمامة الحياة.

تساءل في سره لماذا لم يحدث هذا، أمس وفي نفس المكان، عندما بحث عن الفتاة ذات الشعر الأحمر، ولم يلقَ لها أثراً؟ وأي جنونٍ مسه حتى يعود يوم الخميس، يداعبه أملٌ خافتٌ بلقائها؟ ولماذا صادف أن يرسل له نيكولا وهو يخلع ملابسه في حجرة المشالح رسالةً تخبره فيها أن راف قد نُقل إلى المستشفى بعد أن أقدم على قطع أوردته بالمشرط، وإنه لم يمت لكنه فقد الكثير من الدم.

أغرقت هذه الهجمة العنيفة للحساسية من الكلور ناتان في وهنٍ دام ليومين. استغل ناتان هذين اليومين بغيابٍ مبرر عن المدرسة في الأيام

الأخيرة قبل العطلة بالهروب عبر لعبة « Serious Sam3 » حيث يقضي على الوحوش الواحد تلو الآخر في مصر المدمّرة الملطخة بالدماء، لكن عكّر راف مرة أخرى صفوه ومتعته، فلُطخ الدم تذكره دون توقف بدفقٍ أحمرٍ قاني يُفلت من معصمي العاشق المبتورة، يا له من أمرٍ مرعب لا بل منفر.

لعل الدم انبجس ملطخاً جدران غرفته، و إيهابه الممزق يتدلى برخاوة، لابد أن يترك ندباً يندى لها الجبين، أكثر سوءاً من وشمٍ لذكرى مأساةٍ لن يمحيها النسيان.

كان واثقاً بأنه الدافع لهذه المصيبة، لكنه غير مسؤول. لم يكن يرغب أن يلقي راف كحملٍ ثقيلٍ ليتلقفه رعبُ جراحه، رغم القصد الخبيث الذي رمى راف إليه بأن يجعله يكابد من الشعور بالذنب، الذي لم ينتابه للحظة لأنه هو من استسلم لمتاهة اليأس وما بذل أدنى جهد للهرب بل بالغ بآلامه ليثير الشفقة ويوصل رسائله كمعلمٍ للغناء. لم يراوده العطف أبداً تجاه آلام راف على العكس تماماً إنه يمقتها كمرضٍ معدٍ يجب البقاء في مأمنٍ منه مهما كلف الأمر.

أسدت له لويز بأن يظهر ويتصل بأهله ليستعلم عن أخباره أو أن يرسل له رسالة قصيرة على الأقل، فأجابها:

– ولم لا أزوره في المستشفى مع طاقةٍ من الزهر؟

علّقت قائلةً: – أليس لديك قلب؟

يعلم ذلك ومنذ زمنٍ بعيد أن لا قلب لديه، فما سكن قلبه أبداً في ذكرى واحدة أو في وجودٍ واحد ولا في حبٍ واحدٍ. بضع صورٍ فقط يعرفها تماماً تحرك مشاعره وقد يذرف لها دموعاً وما تحدث لأحدٍ عنها، لعل والده فقط من يتوقعها .والده الذي طالما أبدى له التساهل، ويصفح عن كل أخطائه سعياً لتعويض غياب الغالية بكل رقةٍ وصبر. يدرك ناتان جيداً أنه لم يعد قادراً على الحب، وأن الواقع بالنسبة إليه، قد فقد لذته إلا بتلك الأبواب المتهللة والأسرار البعيدة.

نَعِم ليومين بلعبته المفضلة و هي الغوص في عالمه الخيالي، يلف حبلاً حول رقبته في خزانة الثياب، هذه اللحظات الأفضل والوحيدة التي تحمله لنسيان دماء راف وحادثة الكلور وأسئلة مدرب السباحة الذي لاحظ الآثار الحمراء حول رقبته، قلق لأمرها فسأله إن كان لديه فكرة عن مصدر هذه الآثار وإن لم يكن قد ترك نفسه صدفةً للعبةٍ حمقاء. خفق فؤاد ناتان بسرعة وأجابه بالنفي مستغرباً عن أي لعبةٍ يتكلم، كما أنه لم يلحظ قط هذه الآثار، لعلها ناتجةً عن حساسيته فقد شعر حين كان يختنق بحكةٍ عند الرقبة.

أبدى المدرب أنه قد صدق حجته، لكنه ومع ذلك، طلب رقماً يمكنه من الاتصال بأهله وفعلاً فعل، إذ أجرى اتصالاً في المساء ليطمأن عن ناتان وتحدث مع والده بالأمر.

سارع ناتان إلى الحمام بعد مجيئه من المسبح ورأى تلك الآثار جليةً في المرآة واحتار بأمره كيف سيخفيها فليس من المعقول أن يرتدي وشاحاً في المنزل. وعندما جاء والده ليفحصه عن كثب مستفهماً عن هذه البقع الحمراء، كرر على مسامعه نفس الكذبة التي رواها لمعلم السباحة، مضيفاً أنها ما زالت تسبب له الإزعاج.

خطر له في اليوم التالي أن يغطيها مستخدماً القليل من «البودرة» التي تضع منها لويز، بقصد التخفيف من التباين بالألوان حول رقبته، ووالده لم يعد يتحدث بالأمر.

كيف لا يلجأ لأحلامه الهندية وهي من جعلته يسلى الضيق الذي تسببت به فكرة عدم قدرته الذهاب مجدداً إلى المسبح، فتلاشى أمله الضئيل الذي كان فرحاً به بلقاء ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراويين وتلك البشرة الشفافة. تلك البشرة التي تلف جسداً يتماهى مع سلاسة الهواء والماء تكفيه ليقبل وجوده في هذا العالم.

أمضى يومين في خدرة الأحلام بفتورٍ لا بل بذهولٍ يدنيه من نهاية

رحلته في ذات الوقت التي يحزم فيها أمتعة السفر. رحلته على البساط الطائر الذي سيمزّق بالقوة بعد أن سلمته البقع الحمراء رسالة الوداع، إنه لا يدري كيف سيستغني عنه ويبقى بعدها على قيد الحياة، سرى بجسده قشعريرة بعد تلك الرسالة، منطوياً على نفسه في فراشه تدثره العتمة، يحلم أن يصغر ويصغر حتى يتلاشى وحين يناديه والده بصوته المرهق يعاني بالخروج. كيف سيفارق ألعابه تلك التي إن وضعت جميعها بصف واحد لا تصنع له يوماً واحداً من حياته على الأرض والتي لا تغريه بشيء فهي جسدٌ فاسد، نخرٌ يخشى أن ينتابه وفي الوقت نفسه عليه أن يداري بقع ألعابه كآثارٍ لعملٍ مشين.

رغم الذهول الذي يعتريه والأحلام التي تأسره، كان عليه الخروج من غرفته، من منزله ليبتاع بضعة أغراض ضرورية قبل الرحيل، تلك الأغراض التي دونها والده على قائمة تتوقع كل ما قد يلاقي رحلتهم من مضايقات: حذاء مشي ومطرة ماء كما لو أنه سيعبر الصحراء، قبعةٌ ذات حوافٍ عريضة، كما لو أنه سيذهب لاصطياد أسدٍ، كريم شمسي وكأنه سيعرض جسده لحمامٍ شمسي حول المسبح ذي رائحة الكلور، لتراً من غسول ضد الحشرات الطائرة كما لو أنه سيضرب غابةً استوائية بالساطور وأدوية: مطهر ومضاد إقياء، مضاد حساسية، ضد الهيستامين، مضاد إسهال، مسكن ألم، مضاد تشنج بل ومضاد جرثومي ومضاد التهاب مع وصفة وتفاصيل أخرى تتوعد ببلد تنتشر فيه الأوبئة والكوارث الصحية.

اعتقد أن عليه شراء جيل كحولي لغسل اليدين، ولم يجرؤ أن يضيف لحقيبته قناعاً واقياً.

في اليوم التالي، بعد ظهر يوم الأحد أمسية السفر، جاءت مانون برفقة أهلها حاملةً أمتعتها، فكان لابد أن تنام عند ناتان إذ سيهمّون بالرحيل مع الفجر.

ما زالت ذكريات رحلة والد مانون إلى مصر تداعبه رغم مضي عشرين عاماً، فها هو يتحدث عنها كما لو أنه عائدٌ منها أمس الأول، فمصر بلدٌ خلاب حاضرٌ دائماً لأنه أبديٌ بآثاره والمومياء والنقوش البارزة التي تسكن المعابد والقبور. إلا أن القلق يساور والدتها جرّاء الفوضى والمظاهرات التي تعمُّ البلاد والأمان المفقود في أرجائها وبشكل خاص القاهرة بعد مضي تسعة أشهر على الثورة. فمنذ خمسة عشر يوماً أُحصي أربعة وعشرون شهيداً من الأقباط في مركز المدينة، حسبما قيل، حيث تبثُ الشاشات صوراً مرعبة لمدرعاتٍ تنقضُ على المتظاهرين لتدهسهم، والمشكلة أن برنامج الجولة يحتوي على يومين في القاهرة قبل العودة وبعد إمضاء ثمانية أيامٍ في رحلةٍ بحرية بين الأقصر وأسوان.

أبدت وكالة السفر وضوحاً بهذا الخصوص، فالفوضى لا تعم الأرجاء هي حكرٌ على بضعة شوارع يجب تجنبها، أما الشوارع الأخرى فبوسعهم التجول فيها بهدوء وسط ترحاب حفي من السكان الذين يتوقون لاستقبالهم، حتى متحف مصر لم يغلق أبوابه رغم أنه كان مرمىً لحجارة الصراع. من جهةٍ أخرى، فإن الفندق حيث سيقيمون يبعد عن مركز المدينة عشرة كيلو مترات قرب الأهرامات.

تطلُّ الأهرامات من ذاكرة والد مانون كموقعٍ مدهشٍ وجذاب يكشف لنا عن تجربةٍ روحانية ويدعو لغز تشيدها للتفكير مطولاً بوجود قوى فوق طبيعية.

فتساءل ناتان في سره: كيف لهذا المتوهم الواهن أن يحكم بقضايا الناس والجنح الصغيرة في مدن فرنسا؟

تشبثت والدة مانون بفكرة أن مصر بلدٌ حيٌ وأن الأضرحة قد أثارت حفيظة الشعب المستعد لرمي حضارته القديمة في الحاوية. ستتصل بابنتها كل يوم معتمدةً على حسن تصرفهم، ما جعلها مطمئنةً بعض الشيء، كما جعلتهم يطلقون لها وعداً بالعودة فوراً لدى حدوث أي طارئ.

أقسمت مانون بألا تغادر المجموعة أبداً وأن تبقي جوالها مفتوحاً حتى أثناء الليل.

بعد سيلٍ من التعليمات، غادر والدا مانون ولم يكن الليل قد هبط بعد.

خرج ناتان بعدهما للتو ليشتري الخبز، فلفته الشمس الغافية خلف أبراج الدفاع مرخيةً سدولها فوق المدينة أسفل جادة رودان لتغرقها ببحرٍ وردي اللون، ترى ألا تبدو هذه البانوراما خلاّبة أكثر من الأعلى ومن البعيد حيث تتماهى التفاصيل في مثل هذا الوقت.

إنه مساء يوم الأحد حيث يسود الهدوء جادة رودان، لقد لمح من بعيد على بعد 100 متر تقريباً، طيفٌ يتجه نحوه قادمٌ من سلالم محطة المترو، أجل إنها هي فتاة المسبح، الفتاة ذات الشعر الأحمر. مازالت المسافات تفصل بينهما ولكن لاشك أنها هي، يا لها من معجزة! تلاشت شكوكه كلما اقتربت، هاهو شعرها الذي لم يرَ سوى ثلاث خصلٍ منه، إنه قصيرٌ. نعم إنها هي!

ترتدي بنطال جينز وكنزةً سوداء يضفي تناقض لونها مع لون بشرتها الشفاف سحراً أخاذاً تحت الظلال الوردية للمساء. اقتربت منه وهي تنظر إليه بنفس الدهشة التي تملكته، إنه واثقٌ أنها قد تعرفت عليه، لعلها كانت تبحث عنه هي أيضاً وبأعجوبةٍ التقت به. كان لديه بضع لحظات ليقرر هل سيتحدث إليها أم يدعها تعبر بسلام مدركاً تماماً بأنه سيفقدها؟

التقت نظراتهما وهو يتساءل في سره ماذا يفعل؟ سار خطوتين ثم استدار وقال:

- ألم نلتقي في المسبح؟

استدارت مبتسمةً وقالت: بلى وتلاقت أيدينا!

إذاً لمحته في المسبح وما زالت تذكر لمسة يده، لابد أن هذه الذكرى

تسكنها. لم تسعفه الكلمات وسط ذهولٍ استحوذ عليه، إنه يخشى الكلمات ومعناها السابح في عالمٍ مجهول، فلصوته رنينٌ خطيرٌ يحرك شعوره، وصوتها الذي سمعه للمرة الأولى سيحرك صورتها ستهيمن على أفكاره كموجةٍ تتدفق من الواقع لتغمر أحلامه. إن الفتاة ذات الشعر الأحمر حقيقةٌ تسير على الأرض، إنها أمام عينيه، تعبر أول بعدٍ للحياة المثيرة للحيرة المحفوفة بالمخاطر، حيث كُتب على كل زواياها من الأفضل الهرب...

بأقصى سرعة، يدخل المصعد، يجد المخرج من هنا، ويرفض حتى الشاي والبسكويت الذي قدمه له الممرض وهو يأمره بتناولها ومتسائلاً منذ متى لم يأكل أو يشرب، وعليه أن يهتم بنفسه.

إنه حقاً لا يتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي سدَّ فيها الرمق لعله الشاي والخبز اللذين تناولهما ليلة أمس في قسم التحقيق، ما عاد قادراً على تذكر الوقت، ولكن مهما يكن، لن يتناول شيئاً في هذا المستشفى حيث يمزقون الموتى إرباً، رغم الظمأ الذي يحرق حلقه والضعف الذي اعتراه فلن يقدم على ذلك مقابل أي شيء.

أرخى الليل سدوله ومازالت القاعة تعجُّ بالناس. تدق عقارب الساعة السابعة مساءً، لكن الكورنيش يعدُّ قليلاً من السيارات، يا للغرابة! ما من باصٍ يتعلق به، كما لو أن الليل قد انتصف وخلد الناس جميعهم للنوم. ما من رجل شرطةٍ واحد عند مفترق الطرق. كيف سيعود الآن، غرق بالحيرة، في هذه الأثناء عبرت سيارة أجرة، ليست عادية إنها سيارة أجرة بيضاء، يتم الدفع حسب رغبة السائق لا حسب العداد، هذا ما قيل له!

أومأ للسيارة قرر أن يتوسل إليه أن يصطحبه فقط خمسة وستة كيلو مترات على طول الكورنيش. توقف السائق، أخبره جمعة أنه يقصد دار السلام، ولكنه لا يملك جنيهاً واحداً فوافق السائق الذي كان قادماً من

مركز المدينة متجهاً إلى منزله في حلوان، قلقاً على عائلته، فخطوط الهاتف مفصولة جميعها. حدثه عن الفوضى التي تعم ساحة التحرير والهيلكوبترات والشهداء والنيران التي التهمت المبنى الكبير لحزب اللصوص. تم فرض حظر التجول منذ ساعة تقريباً، إلا أن رجال الشرطة تعرضوا للهجوم وفتحت أبواب السجون، والجماهير في مركز المدينة مبتهجة تقبّل جنود الجيش وترفض العودة إلى المنزل، انتهى الأمر ولن يعود شيء كسابق عهده، إن أراد اللّه، سيلوذ الملك والملكة والأمراء بالفرار عما قريب، لتولد مصر من جديد فليباركها الرب ويبارك أبناءها الحقيقيين.

فوجئ جمعة بما رأى فما من رجل شرطة في دار السلام لا في الحي العلوي ولا حتى في الأسفل، أفلت سكان هذه الأحياء البائسة في الشوارع ذات النور الخافت كعصافير هاربة من أقفاصها. لم يكن حظر تجول، إنه يوم عيد، لعله انتصار مصر بكأس نهائي إفريقيا.

شقّ جمعة طريقه بين الحشود المبتهجة، لكن الأسى كان يسكنه حزناً على ياسين التي طالما زرع هذه الشوارع بخطاه وبصرير طنبر الريش النتن.

لم يتقاسم ياسين الفرحة مع هؤلاء الناس الذين كان يصادفهم كل يوم، ضحى بنفسه من أجلهم ولا يعرف أسماءهم. يدق كل مترٍ من هذا الشارع بناقوس غيابه فيتملك الألم جمعة.

داعبه الأمل برؤية رجب في قهوة أيمن، تحقق أمله، ها هو هناك يحتسي الشاي أمام شاشة الجزيرة التي تبثُّ صور الثورة، تعانقا لوقتٍ طويل، كان القلق يساور رجب خشية أنه قد لاقى مصرعه أو رُمي في السجن، بحث عنه في الشاشات كثيراً، أما جمعة فواساه لقاء صديقه الذي سيقاسمه ألمه، قدم له أيمن الشاي وأرسل الصبي الصغير ليحضر له خبزاً وفلافل. روى جمعة كل ما جرى معه، تحدث عن المتظاهرين وعن لقائه بياسين وعن ياسين الجريح ثم ياسين في المستشفى، تطرق لفرع التحقيق وبراد الموتى حيث فُقد جثمان ياسين مع أنه واثقٌ أنه قد توفي. قال له رجب

بـأن عليـه أن يأكـل ويأخـذ قـسطاً مـن الراحـة، وغـداً سـيخبرون حـسان ويتجهون إلى المستشفى، وإن لم يسلموهم جثمانه سيضرمون فيه النار، فلا بـد أن يغسل جـسده ويكفـن ويـتم دفنـه بعـد صـلاة المـوتى وإلا فلـن يلاقـي الجنة.

تنـاول جمعـة طعامـه واتكأ علـى كتف رجب غافياً. بعد برهـة، هـزّه رجب قائلاً: «ملك اللصوص سيتحدث على الشاشة، ربما سيعلن تنحيه».

ولكـن كـلا إنـه يهـذي بـصوتٍ خافـتٍ كـأبٍ نهـره أبنـاءه وقـال: «مـصر ستغدو بشكلٍ أفضل، إن لها غداً واعداً والمهم أن يلتزم الشعب المنازل.»

اجتـاح الـشوارع صـفيرٌ وصـراخ وكلمـات «ارحل»، ثـم تلاشـت رويـداً رويداً. أمـا شـبان «الفيس بوك» الثائرين فمـا برحـوا سـاحة التحريـر، ربمـا شهدت ثورتهم شـهداء، ربمـا ملايين الـشهداء لكنهـا ستـستمر. هدهـد هـذا اليقين المترع بالأمل لجمعة الذي افترش الأرض الدرنة في قهوة أيمن، انطوى على نفسه قرب الجدار واستسلم للنوم تماماً.

راود حسان الـشك باستشهاد ياسين،هذا قالـه لهمـا في صباح اليـوم التالي، فغياب ياسين لثلاثة أيامٍ متتالية ينبأ بموته أو ضياعه، شعر أنه كان يرغب بأن ينهي حياته شـهيداً، ففـي سـاحة التحريـر تبـدَّل «الكـراج» وسـعى لأن يضحي بنفسه مـن أجل الآخـرين، نعم لقـد راوده هـذا الإحـساس لا بـل رآه بعينيه بالطريقة التي كان يركض بها ويلقي بنفسه بالمخاطر. كل ذلك ما كفكف دمـوع حـسان، لطالمـا ترعـرع حـسان في كنـف والديـه وتعلـم القـراءة والكتابة، فما زال لديه دموعٌ ليذرفها.

قـصدوا مـشفى قـصر العـيني، لم تكـن الـسيدة المعتـادة في قـسم الاستقبال، حلَّ محلها سيدةٌ أكثر شباباً، ألقت نظرة على السجل ثـم أجـرت اتصالاً. أكدت لهم أن الصبي الذي حمله «جمعة العلبي» قد توفي بنفس اليوم الذي وصل فيه، هذا ما كتبه الطبيب، إلا أن جثمانـه لم يـدخل بـراد المـوتى. لعل الشرطة قد أخذتـه أم أخطـأت إحدى العـائلات بالـصبي المشوّه. لعلهم

يعثرون على جثمانه يوماً ما في إحدى الأماكن وخزائن الخدمة بخطأ من أحد الممرضين.

يدأ حسان بالصراخ ثم أمسك السجل ورماه أرضاً، فهرع الحراس و زجُوه خارجاً . هام الفتيان الثلاثة لعدة أيامٍ تلت في أزقة الحي العلوي الخاوية رغم ازدحام الناس، يتلفتون في كل الاتجاهات يداعبهم أملٌ كاذبٌ بظهور ياسين.

في أحد الأيام، اتجهوا إلى ساحة التحرير التي كانت تشهد «مسيرة المليون»، اجتمع شعب القاهرة برمته في الساحة ليصرخوا معاً «طالبين الخلاص» مطالبين عصبة النصابين بالرحيل.

كان حسان قد التقط لياسين الأشقر صورةً بلباسه يوم استشهاده وهو يبتسم له ويتنزه في الساحة، فطبعها بحجمٍ كبير ولوّح بها فوق محيطٍ مترامي الأطراف من الرجال والنسوة والأطفال ولدى سؤالهم هذا الشاعر بأحزانه والمجنون بمأساته، من يكون هذا الغلام؟ أجابهم:

«هذا ملاك الثورة! حياً أكثر من الأحياء وميتاً أكثر من الأموات».

طلب جمعة من حسان أن يطبع له نفس الصورة بحجمٍ أصغر، لا ليراها وإنما ليدسها في جيبه «كالتعويذة»، شعلة صغيرة تمده بالقوة لمتابعة حياته ويجمع العلب من جديد .. في المساء سيتابع الأحداث عبر شاشة التلفاز في قهوة أيمن.

هاجم مرتزقة النظام شبان «الفيس بوك» على ظهور الجمال، أما ذاك الجنرال المريع ذو ربطة العنق فقد أعلن تنحي الرئيس بحدادٍ كما لو أنه يعلن وفاته، في اللحظة نفسها، انفجر الفرح في ساحة التحرير ولا بد أن الساكن في الطرف الآخر من البحر قد سمع دويه. وفي الحي العلوي لدار السلام، أُطلقت الأعيرة النارية في الهواء، ذُعر رجال الشرطة فاختفوا عن الأنظار، أما المساعد الذي بحث عنه آلاف المعذبين فقد لاذ بالفرار إلى ليبيا هرباً من جرائمه.

بثَّ التلفاز، مشاهداً من أحياء «الفيس بوك» المترفة حيث تدجج بعضٌ من شبانها بالشويك وعصي الغولف لحماية أبنيتهم الجميلة من مباغتة المجرمين الفارين من السجون. لم يكونوا يدركون أن كل السوقيين، قاتلي النسوة والمبتزين وخاطفي الأطفال قد اجتمعوا في دار السلام، يطلقون الأعيرة النارية بأسلحتهم التي استولوا عليها من أقسام الشرطة التي التهمتها النيران. نشبت حروب ضارية ما بين الجيوش التي انضموا إليها والتابعة لأمراء المخدرات وتجار الأعشاب والحشيش والترامادول، وهم يعيثون فساداً متنقلين من مبنىً لمبنى دون هوادة، وسكان الحي ما أطلوا على الشوارع إلا في أوقات الهدنة حين يهدأ إطلاق النار.

لم يعد الناس يتعرفون على بعضهم البعض، لقد تغير كل شيء، فأجسادهم التي فك وثاق الخوف عنها، صارت تسبح وكأن الجاذبية قد انعدمت بخفةٍ غير معهودة.

يرسم الأطفال على الجدران، يتعانق العشاق على مرأى الجميع وغدا العجزة شباباً برشاقةٍ غريبة، وفي الصباح، حلَّ «صباح الثورة» محل «صباح الخير»، امتطى الخلاص المرتقب صهوة الربيع ببشائره التي هلَّت على مصر وما تثاقل إلَّا في دار السلام.

ما زالت الثورة حديثة العهد ببراعم السعادة. تخبطٌ غريبٌ في الشوارع، فحسب ما روى حسان، أنه صادف في المترو صبيًّ يشبه فتاة بشعرٍ طويل متموج يضع رأسه على ركب شابٍ آخر فيداعب شعره ويقبل جبينه، أما على الكرسي المقابل، سلفيٌ ملتحي يتلو بعضاً من الآيات القرآنية من شاشة الجوال.

في الحي العلوي لدار السلام، لم يكن شيءٌ يهدد هذا الربيع، لا حروب عصابات الأشرار ولا الجماعة التي برزت أنيابها. ارتمى المياومون ببراثن العطالة جرّاء الإضراب الذي يضرب أنحاء البلاد والموانئ المغلقة وأسعار البنزين المرتفعة والمزيد من المشاكل التي لا حصر لها، زد على أن

أسعار الخبز والسكر والشاي تتسلق عالياً، وازدهرت الصناعة الوحيدة «كل شي بيمشي» التي روّجت لها عصابات الأشرار ومقلبي المزابل العمومية.

لم يستغرق الربيع فصله كاملاً، اكتفى بأقل من شهرين بعد مغادرة المستبد العجوز، هناك على الأرض، شاهد جمعة حزمة من المرتزقة على شاشات التلفاز، تكتسح ساحة التحرير بمنصاتها وخيامها أمسك رجال الجيش بالثوار الذين حاولوا الهرب. عُرف لاحقاً أن الفتيان قد تعرضوا للتعذيب أما الفتيات فقد أهن ومزقت ثيابهن ثم أحيلت الأمور برمتها إلى المحاكم العسكرية، وحكم عليهم بالسجن لسنوات.

فهم الجميع، في قهوة أيمن، أنه لم يكن هناك ثورة وأن ذاك الرجل الذي أعتبر ملك اللصوص والمجرمين ليس سوى دمية متحركة بأيدي الرجال ذوي الزي الموحد والمزركش، وهمهم الوحيد هو الاحتفاظ بما لديهم من ميزات وبأموالهم الأميريكية ومزارعهم ومصانعهم والمدارس الخاصة التابعة لهم والمشافي والنوادي والمطاعم والمسابح وآلاف التجاوزات الأخرى للقانون وما يعود عليهم بالفوائد، أولئك لم يغادروا وإنما جرجروا دميتهم إلى المحاكم ولم لا ينفذون بها حكم الإعدام شنقاً، وينظمون انتخابات ويلوحون بالحرية.

اتفق كل رواد قهوة أيمن أن الكذب صار واضحاً على وجوه هؤلاء الحيتان القدامى في خطاباتهم، لن يغادروا أبداً.

حلَّ الصيف ثقيلاً على بعض العائلات التي عجزت عن تأمين ما يسد رمق أبنائها حتى في حي دار السلام السفلي. رجب من بينهم، فما عاد الناس يقبلون على شراء المحارم، أما جمعة فقد حظي بصيف وافر الخير، مع بدء العطلة المدرسية ومنذ عدة سنوات خلت، نصبّه عجوزٌ بدينٌ أثرمٌ بالكاد يقوى على الحركة المسؤول عن الأرجوحة التي صنعها العجوز بيديه من قفصٍ حديدي مركب بطريقة الميكانو وطلاها بكل الألوان تقريباً

مـع مقعدين وفيـل صـغيرٍ مـن البلاسـتيك مثبتـةً علـى أرضٍ معلّقـة تتحـرك ذهاباً وإياباً حسب قوة الدفع. خصص الرجل العجوز أرضاً صغيرة غائبةً بين بنائين في الحي السفلي لدار السلام. بالكاد يتوصل «العجوز»، لقبه ربما لأنه عندما وطأ الحي كان يناهز الأربعينات، لدفع الأرجوحة خلال الفصول المجدبة، فهي تتطلب دفعةً قويةً تنهكه للتو فكل من يعتليها ثقيل الوزن بما فيه الكفاية. أما بحلول الصيف ومع توافد كل أبناء الحي في كافة الأوقات، فلن يقوى على ذلك بمفرده وجمعة اعتاد هذه الرياضة التي تتسبب له بتيبسٍ في العضلات في اليومين الأولين فقط. كان العجوز سعيداً بمساعدته فهو يتعامل مع الأطفال بظرافةٍ وصبر محببين.

كلفة الجولة الواحدة بالأرجوحة ليرة واحدة، كان جمعة يكسب 10 ليراتٍ باليوم، ما يكفيه لتناول صحن فول وفلافل في الصباح والمساء، متقاسماً وفرة الطعام مع رجب في مأواهما الجديد أعلى السلم حيث ألقيت سيارة بيجو 504 مكسوة بالوبر منذ عشر سنوات تحت جسر منيب. يتقاسموها مع الجائع الذي سبقهم إليها.

اعتقد الجميع أن قائمة 864 شهيد قد أفضت لنهايتها بغض النظر عن ياسين وبعض الشهداء الآخرين، فخلال هدنة رمضان وحتى تشرين الأول، لم يسقط ضحايا. في إحدى الأمسيات، بثت الجزيرة صور مدرعات الجيش تنقض بضراوة على الذين تظاهروا على خلفية قصة الكنيسة. تعرّف جمعة على المكان بشكلٍ جيد إنه نفس المكان بالضبط حيث قذفت سيارة الشرطة ياسين في الهواء على كورنيش ماسبيرو قرب مبنى التلفزيون لكن هذه المرة، الجيش من يتعرض للناس ويسحق أجساداً. أضيف 24 شهيداً للقائمة. انهار أيمن القبطي على كرسيٍ في قهوته وأجهش بالبكاء، فهو من الثوار الحقيقيين، قال بين شهقتين أنه سيشتري سلاحاً ويطلق النار على أول ضابطٍ يصادفه. حاول الزبائن مواساته وبذلوا جهداً لتهدئته حتى أخذه أحدهم في أحضانه وهدهد له كطفلٍ باكٍ.

غرقت دار السلام بيأسٍ فاض أنهاراً من الأيام الكئيبة. انبعث في هذه الليلة المألوفة جداً حلمٌ يحلق على جنح لحظةٍ قصيرةٍ منسية، حلمٌ بالرحيل واللجوء...

إلى عالمٍ أفضل من بلد الأموات هذا. يداعب الظل الرطب لهذا الضريح في وادي النبلاء ناتان الذي نهشته الشمس وأرهقه الحر وأغاظه الذباب العنيد. يا للارتياح الذي يشعر به والذي حُرم منه منذ أن وطأ الأقصر، إلا في هذا الضريح الكبير «لراموسي» وزير الصعيد تحت حكم «أخناتون»، وكذلك في غرفة الفندق المكيَّفة، صباحاً وعند بزوغ الفجر حين كانت مانون مستغرقةً بالنوم أسفل تلك النوافذ الكبيرة المغلقة خلف البستائر الزرقاء التي لا يشفُّ منها سوى صباحُ العصافير المغرِّدة.

أقلت هذا الضريح بأعجوبةٍ من السيَّاح، فاتحاً يديه ليهبَ صوراً منحوتة وأخرى مرسومة لعالمٍ لن يضيع أبداً، عالمٍ باقٍ كالسراب، كتخيلاتٍ عذبة كحلم يقظة بنعمةٍ سرمديةٍ لشعبٍ منفصلٍ عن كوكبنا يرتب لرحلته الأخيرة بصفاءٍ وفق لحنٍ إيقاعيٍ لا تشوبه شائبةٌ فتسري فيك نشوةُ البخور ثملاً بعطر اللوتس، متسمِّراً أمام عالمٍ ناعمٍ كحجرٍ مصقول.

في الخارج، العكس تماماً، تتنقل بين الضيق الذي يلقيه الطقس وشراسة الحشرات وبين إزعاج الصبية بثيابهم الرثة القذرة والذين تسكنهم الطفيليات والقمل لا محالة، ينبثقون كسربٍ من الأشباح ويتعلقون بذراعه ويشدون قميصه وهم يتوسلون أن يشتري فقط لعبةً من الشيفون لنفرتيتي قذرة بل ومصنوعة في الصين.

استمتع أيضاً بالظلال المهدئة في باحةِ معبد رمسيس الثالث القابع في مدينة حابو منذ ملايين السنين. تحيط الأعمدة بالساحات التي رصصتها الشمس وتلعب فيها زوابعٌ من الغبار.

تعرَّف ناتان هنا وكذلك في الكرنك على ديكورات Serious Sam3،

لعبة الفيديو المفضلة لديه، ولكن هذه المرة حلّت أسراب السيّاح المزعجين محل وحوش الفيديو المقززين والمسليين ولكنه لا يتمكن من تفجيرهم بمجرد ضغطة بالإصبع، كما أنهم يفسدون، ما تقدم النحوت الناتئة من أمراء ومحاربين وآلهة بالإضافة لتلك العقارب الضخمة والتماثيل ذات القرون بعيونٍ حمراء كحممٍ منصهرة، يدّمر هؤلاء البشر عظمة وسحر هذه المعابد مثل انفجار ألعاب فيديو ولكن بأسلوبٍ هشٍ لا يعتريه أي إحساسٍ بالمشهد. لولا هؤلاء السيّاح، لما مقت ناتان بلد الأموات هذا.

لم يكن الأموات يلقون في نفسه الكدر، كما أن مصر بدت له في الأقصر كمقبرةٍ مترامية الأطراف بأضرحتها ومعابدها الجنائزية والمومياء الموجودة في متحفها، لا نبض للحياة فيها سوى بأولئك الصبية الملتحين. تمنى ناتان لو أن تجوالهم على ضفاف الموت كان بالمنطاد، مما يضفي على وقار المقابر فكرة ألا نطأها بأقدامنا.

المشهد في القاهرة، كان شديد الاختلاف، فهنا مدينة تعجُ بالحيوية ليل نهار ما لم يره ناتان بحياته، حيث يتدفق الناس بحيوية ومرح، يلفهم الصخب في الشوارع التي تأنُ من غازات النفايات وغيرها من العفونة.

اصطحبهم المرشد السياحي إلى أحد الأسواق المغلقة كما لو أنه كنزٌ مكنون بعيداً عن متناول الدروب المأهولة، إلا أن ناتان غاب عن الوعي بين أسراب الذباب وهي تغطُ على الطعام الفاسد الذي تعبق رائحته النتنة في المكان، ليتعثرون ببركٍ لدم حيوانات مذبوحة ومعلقة، لم تكن المرة الأولى فقد أُغمي عليه مرة أخرى حين أصرّ والده على ركوب المترو عوضاً عن التكسي ليعيشوا يوميات مواطنٍ مصري رغم التحفظ الذي أبدته كل من مانون ولويز. بعد أن أفاق من إغمائه، شاح بناظريه عن تلك المتسولة المنتحبة التي تدب دبيباً وسط المترو وتمد يدها للناس وكانت قدماها العاريتان مطويتين بالاتجاه الخاطئ بسبب حوضها المشوّه.

تتالت على طول الخط أمام ناظريه مشاهد البؤس المحزنة بشوارع

كئيبة مزدحمة وأبنية متماسكة بأعجوبة بجانب أكوامٍ من الحطام يسبرها رهطٌ من الكلاب التائهة، ومصائب أخرى ليست بالحسبان. تطلّ بين الفينة والأخرى، دفقاتُ أمانٍ تغفو في ساحات صغيرة بارزة على ذراع شارع خان الخليلي أو في ظل خيمة لأحد المطاعم على ضفاف النيل، يهددها للتو عاملٌ ممرضٌ كطنبر التنظيف الذي يجره حصان يتضور جوعاً أو عصابةٌ من القطط القرعاء المتأهبة للانقضاض حتى تأكل و تموء بشراسة تحت الطاولة.

لاذ بالمشروب الكحولي ظناً منه أنه قد يخفف من وطأة هذه الآلام المبرحة، لذلك دسّ في حقيبته قبل العودة زجاجة فودكا بالدراق دون علم والده. لم يرشف منها في الأقصر إذ اكتفى بثلاثٍ من البيرة المحلية لينسى الحر.

قرر بعد ما أصيب بصدماتٍ ليلة أمس أن يملأ جعبته ويحتسي رشفةً كل ربع ساعة على طول اليومِ التالي الذي سيمضيه في القاهرة، فبعد جرعة كبيرة تلاشى اشمئزازه، وهو في حجرة سيارة الأجرة العقيم والمكيف الذي يصطحبهم بجولة على كورنيش النيل باتجاه القاهرة القديمة ومتحف الأقباط شعر أنه في معزلٍ عن الواقع المدني المؤلم حيث يتتالى صفٌ قبيح من الأبنية بعيداً عن ذراع النهر وعن تلك المتسولة ذات الرداء الأسود التي تطرق النافذة حاملة ابنها المنحني على كتفها في مشهدٍ خشي أن يكون يوماً أحد ممثليه.

حطت بهم سيارة الأجرة أسفل قناة تم ترميمها حديثاً وقد كانت تحمل ماء النيل إلى قصر القلعة. هناك بعيداً عن فتحات جسور القناة، تنوء أكواخٌ بأكوامٍ من النفايات. هناك حيث مصر التي لا يراها السياح.

كان الطقس حاراً وتخلّف ناتان عن المجموعة التي قصدت زيارة الأماكن المرممة للقناة ثم جلس على الحاجز المنيف على ضفاف النهر تتدلى فوقه أغصان شجرة تين البنغال(*) وارفة الظلال.

(*) تين البنغال: شجر كبير تتدلى أغصانه على الأرض و تعرِّق فتحصل على أشجار جديدة.

حمل إليه النهر نسمةً عليلة داعبت وجنتيه فأثملته رامياً وراء ظهره ضجيج حركة السير وانزلق ذهنه بحلمٍ يراقص إيقاع مجرى النهر. في الأسفل، مصطبةٌ حجرية خلفها رصيفٌ بأدراجٍ تصل إلى النهر، وقف عليها فتىً مبللٌ من رأسه حتى أخمص قدميه، يرتدي سروالاً صغيراً ممزقاً وينظف جسده بالصابون بعناية فائقة. بعد برهة، لاحظ الفتى أن ناتان يراقبه فابتسم له. غاص في النهر وسبح عدة مرات على بطنه قبل أن يرتقي الأدراج وقد زال الصابون عن بشرته السمراء النظيفة والناعمة المصقولة كغرانيت التماثيل التي تأملها ناتان في متحف القاهرة صباحاً. جذبه شعورٌ غامضٌ، إحساسٌ خفيٌ بأن شيئاً ما يربط بينهما، توافقٌ غير بيّنٍ، ربما لانفصاله عن العالم وحيداً عارياً على مصطبته كجزيرةٍ نائية أو ربما الفودكا التي أكثر منها ولّدت فيه هذا الإحساس.

فجأةً أومأ له الفتى الذي مازال يبتسم له بالانضمام إلى جزيرته ولم يتردد الغريب بالقبول، وجمعة لم يتردد فهذه المرة الأولى التي يقترب منه أجنبي، يا لحسن الحظ! إنه نظيفٌ عارٍ لا تفوح منه سوى رائحة النيل كما أن الغريب لن يرى حالة ملابسه. يبدو أنهما متماثلين بالعمر، ويبدو أيضاً أنه ثريٌ كباقي الأجانب، شعره الجميل ناعمٌ وطويل، يحمل على ظهره حقيبةً ويرتدي كنزةً وبنطال جينز نظيفين جداً من أحدث تصاميم Adidas. لقد استحوذ على إعجابه بطريقةٍ تعجز الكلمات عن وصفها، ربما ببساطة وحدته في ازدحام القاهرة أو شعوره بأنه تائهٌ ليس فقط في شوارع العاصمة وإنما تائهٌ آتٍ من عالمٍ مجهولٍ مثل ما ينتابه حين يخرج من دار السلام ويعبر السيدة زينب. حركاته ونظراته وكلُ شيء فيه يوحي أنه مريخي يكتشف كوكبنا. تبتلعه سحابةٌ من الخجل، كما أنه لا يفهم اللغة العربية حتى الجمل البسيطة ليسأله: ما اسمك؟ من أين أنت؟

لكن جمعة وبفضل بضع حركات فهم أنه فرنسي واسمه شيء ما مثل «ناتا»: يا للمعجزة «فرنسي» من أحسن الناس على الأرض، أولئك

الذين يحبون العرب، ربما هو مثل زيدان يسكن أجمل بلدٍ في العالم مع أكثر نساء العالم إثارة اللواتي لا يكف عن الحلم بهن.

استمتع جمعة بعذوبة نسمةٍ لمست عبق النيل وعانقت بشرته النديَّة، في حين أن ناتا كان يشعر بالحر بدا ذلك جلياً في أنفاسه اللاهثة كما لو أنه قطع شوطاً كبيراً جرياً على الأقدام. فاقترح له عبر الحركات أن يخلع ملابسه وينضم للسباحة معه، فطبطب ناتا على ساعته وأشار نحو الأعلى إلى الكورنيش، أدرك جمعة أن ناتا ليس وحيداً وأن هناك من ينتظره.

لعل بوسعهم الانتظار ريثما تخمد رطوبة النهر سعير الحر الذي يتملكه، ليكون باسم النيل أجمل ذكرى يحملها من رحلته، جمعة يثق بأن عذوبة النيل لا تنسى حتى ولو ألقت المصانع فيه نفاياتها ورمى الفلاحون فيه أوساخهم.وخاصة أن خفر السواحل لم يعودوا للقبض على السباحين بقواربهم. ألح جمعة فنزل ناتا عند رغبته، فرح جمعة مطلقاً صرخات مرحٍ ثم بدأ الغريب بخلع ملابسه. سيروي جمعة كل ذلك في كل زوايا دار السلام، سيروي أنه أقنع أجنبياً بالسباحة في نهر القمامة الذي لا يبدي الكثير من المصريين استعداد ليبللوا إصبعاً من أقدامهم.

خبأ جمعة أغراض ناتان تحت أمتعته ثم رميا أنفسهما في الماء، كان ناتا يسبح بشكلٍ جيد بل وأفضل منه فتخطا دون صعوبة الذراع الصغير للنهر حتى وصلا ضفة مانيال. بدا الغريب سعيداً جداً، تصافحا وجلسا قليلاً ليستمتعا بعذوبة النسيم، تضرع جمعة للرب بألا يقفز جرذ أو يطلُّ متسكعٌ رث الثياب فهو لا يريد لهذا الوجه الباسم أن يحزن مهما كلف الأمر، تأمل أطرافه المتناسقة وراقت له تلك البشرة البيضاء الصافية الرهيفة.

أشار له ناتان بالعودة إلى المصطبة ولدى عودتهما، أومأ له أيضاً أنه يريد تنظيف جسده بالصابون. دعك جسده من الرأس حتى أخمص القدمين وسمح لجمعة بدعك ظهره ثم جلس وكأنه لا يريد لهذه المداعبة

الزلقة أن تنتهي، فأخذ جمعة وقته بفرك كتفيه وظهره فرحاً بالمتعة التي منحها للغريب، فركه طويلاً ودعك رقبته أيضاً لكن البقع الحمراء أبت الذهاب ثم ذراعيه وشعره، استدار الغريب لتفاجئه الدموع المنهمرة من عيني الفتى الحمراوين، لعله من تأثير الصابون!

بحث الغريب في حقيبة ظهره تحت المتاع وأخرج زجاجة ماء وأخرى صغيرة الحجم، نظف جسده بمياه الزجاجة التي تكلف 2 ليرة في حين أن مياه النيل بالمجان، ثم فتح الزجاجة الصغيرة ومدها لجمعة وأشار له بأن يرشف القليل. إنه كحول، كحولٌ شهي بطعم الدراق، يحتاج جمعة ليترين منه حتى يحلّق إلى جنان الأرض حيث النشوة والفرح والأحلام، لكنه نزل عند رغبة الغريب واكتفى برشفةٍ واحدة وكذلك فعل ناتا.

مدّ جمعة كنزته لناتا حتى يجفف جسده الرطب فرفضها وطبطب على جسده بكنزته ثم ارتداها، أما جمعة فما جرؤ على ارتداء ملابسه خشي من ازدراء الغريب لملابسه القذرة والممزقة.

دوت في هذه اللحظة رنةٌ تشبه DJ صادرةٌ من الحقيبة فبحبش ناتا وأخرج هاتفه الجوال، جوالٌ كبيرٌ لمليونير يتحكم به بلمس الشاشة. نظر ليعرف من المتصل إلا أنه لم يجب. وقف لوقتٍ طويل وهاتفه بيده حتى بعد أن توقف الرنين ثم فتح الجهاز، أخرج البطاقة ورمى بها في النهر.

قال جمعة في سره أن هذا الصبي يستحوذ على إعجابه بهيئته الغريبة ولطافته وبشرته البيضاء ولكن أيضاً بالجنون الذي لمسه فيه. مجنونٌ مثله، تائهٌ في عالمٍ واقعي تختفي فيه السبل الجيدة التي تفضي لمتع العيش. بينما غرق بأفكاره هذه، كان الغريب يطبطب على الشاشة، ثم اقترب منه ومد له الجوال، أمسكه جمعة وتأمله، لقد كان خفيفاً وناعماً مثل الريش، تشغل شاشته صورةٌ خلّابةٌ للأرض أُخذت من الفضاء، ثم حاول أن يعيده إلى الغريب لكن الأخير رفض بإيماءةٍ من رأسه وضم يداه بيدي جمعة اللتين تمسكان بالجهاز كأنه يقول له بأنها هدية. لم يتوصل

جمعة لتصديقه فهذا بخشيشٌ مبالغٌ به وما طلبه يوماً، ولكن ليس باليد حيلة، يرفض ناتا استعادة الجهاز مكرراً وهو يهز رأسه بقوة: «مو بخشيش، مو بخشيش»، هذه الكلمة الوحيدة التي فهمها.

صافحه طويلاً ثم عانقه خفيةً واضعاً يده على كتفيه للتو، أخذ حقيبته وتسلق الضفة الوعرة للنهر، ودّعه بإيماءة واختفى، ليظل جمعة وحيداً من جديد وكنزه الصغير بين يديه لا يدري ماذا سيفعل به؟ إلى ذلك الحين سيغفو بجوار صورة ياسين، ليلمس بيديه ذكرىً يهددها مجرى الأيام الصاخب بالزوال، ذكرى لشعاع شمسٍ اخترق ليله المعتاد كوميضِ نجمٍ، سرابٍ مبهر...

هذا ما بقي له من الاستحمام في النيل برفقة مجهول قال أن اسمه «جمعة»، يا للأعجوبة فبعد عدة رشفات من الشامبانيا ترك نفسه لراف وبعد 3 رشفاتٍ من الفودكا سبح في مجرور؟

أخبر والده الذي كاد ينهار قلقاً وخاصةً عندما لم يجب على جواله وهو ينتظره مع مانون ولويز أمام القناة بأن I-phone قد سقط بالماء فغطس ليلتقطه. صدقه والده للتو فما زال شعره مبللاً بل وهنأه فما توقع أن باستطاعته الإقدام على مثل هذا التصرف، كما أنه سيشتري له جهازاً جديداً فور عودتهم. أدرك ناتان حين كان يدعك جسده بسائل الاستحمام في حمام الفندق أن الفودكا لم تكن وحدها الباعث على تلك الأعجوبة.

بحركاتٍ مريحة فرك الفتى جسده لتبقى ذكرى يلوذ إليها بحنين حارق كسعادةٍ مطلقة قد أفلتت من يديه إلى الأبد ثم استسلم لأحاسيس شديدة القدم لتلك المداعبات التي كانت تشعُ بالحنان، فاضت به الانفعالات حتى انهمرت دموعه.

يا لأسطورة القاهرة! بأعجوبةٍ جذبه الفتى نحوه ثم إلى الماء، كما لو أنه منومٌ مغنطيسياً أو منبهرٌ بسحرٍ، ربما لأن الفتى يشكل معه ثنائياً أو

بالأحرى نصفه المحتم، كأنه صورته في المرآة تسكن في شخصٍ آخر جاهزٌ ليعيش الواقع ويضيف عليه البهجة لمئة مرة.

شغل هذا اللغز تفكير ناتان لدى عودته إلى إيسي، فكر ملياً بتلك المعجزة، بتلك اللحظة التي تصالح فيها مع الواقع المثير جداً للقلق فوراً و دون تفكير. ولكن للأسف تلتهم الأيام بوقعها الكئيب الرتيب صوراً و أحاسيساً رأت النور في فترةٍ تتلاشى هي الأخرى في الوجه القاتم للروتين المكفهر كشهر تشرين الثاني.

يلقي الرمادي بجبته على كل شيء ويجعل كلَّ يومٍ نعيشه سلسلةً من الاختبارات التي علينا تخطيها؛ راف كان إحدى هذه الاختبارات: تدخلت والدته وتوسلت إليه أن يعود راف بزيارة في المستوصف فهو يود طلب الصفح منه، لعل هذا الصفح يساعده على تسوية انحرافه. سأل ناتان: ولكن أسامحه على ماذا؟

أجابت الأم: بأن حملك وِزر موته، إنه يكابد من هذه الفكرة. كما أن الطبيب النفسي يظن أن هذا قد يكون له أثراً جيداً يساعده.

يا له من مشهدٍ سينمائي باهتٍ لا يطاق، كما أن راف هو من اختلق يأسه بيديه ولا بد أنه من يخلق هذه المشاعر بوسعه أن يجد طعماً مختلفاً لحياته ولم يعد يشعر بالذنب بعد حادثة الشامبانيا، راف منحرفٌ لدرجة أنه ربما يختلق هذه القصة كمكيدةٍ أخرى.

ألحَّ والده ولويز على ذهابه فزيارةٌ لنصف ساعة لن تتيح له فعل شيء كما أنها ليست بالأمر العظيم وستُطوى الحكاية بعدها.

يبعد المستوصف مسافة محطتي مترو بالإضافة لوقتٍ لا بأس به لانتظار الحافلة. إنه بناءٌ مرعب، كما تخيل ناتان، قصرٌ صغيرٌ يعود لعصور النهضة وبرجيه المدببين أكثر شؤماً منه، ترشح كل كآبة الكون من جدرانه المبنية من الآجر بإطار حجري.

عبر تلك الحديقة الضبابية مصدراً بالحصى صريراً مع كل خطوة،

توقع أنهم لا يسمحون للمرضى بالخروج في هذا الطقس الكئيب.روحه توشك على الغرق لكنها تعلّقت بطوق النجاة الذي ألقاه فتى النيل من كبد الذكريات لتداعبه شمسُ ابتسامة جمعة الذي استولى على جسده بطريقةٍ سحرية ودون أن ينبس ببنت شفة.

أوقفه صوت امرأة ثائرة الأعصاب قادمٌ من المبنى فحل دويه محل صرير خطواته لكن بعده أبقاه مبهماً.إنه قريبٌ من الهدف لكن جمعة بابتسامته أمره أن يقوم بنصف دورة.

تلاشت صورة النيل بيد أنها تطل عليه كما هي في بعض الأحيان فارضةً ذكرى لإحساسٍ بالكمال ولهجرانٍ ممتع. حقاً يكابد في هذه الذكرى ألماً: ألم المستحيل القادمة منه هذه الذكريات ومستحيل الضياع المرتمية فيه. كما أنها تنبثق في اللحظات المضنية جداً لتخلصه مثلاً من مللٍ يتثاقل كالرصاص يتسلل خلسةً ويملأه لدرجة الاختناق فيخرج من الصف متذرعاً بأي حجةٍ بقصد تغيير الهواء الذي يتنفسه والأفق أمام عينيه.

ترخي هذه الذكرى بظلالها بقوةٍ مع مانون مما دفعه لقطع العلاقة معها، لاحظت مانون جفاءه فبذلت جهوداً كبيرة لتخفف من وطأة مراقبتها وانتباهها لكل أفعاله وحركاته ولم تعد تكيله باللوم على غيابه عنها وعن العالم من حوله. تأثّر ناتان بهذه الجهود لكن الأمر انتهى بالنسبة إليه.

ذاك اليوم، يوم جمعة في القاهرة، بعد أن استحم في الفندق، أرادت أن يمارسا الحب بجسده الرطب العاري ذي الرائحة العطرة، لكن ناتان تجاهلها دون أن يلوذ لأي حجة فلم يطق فكرة أن تلمسه وتهزّ انفعال النيل الذي ما زال متدفقاً. في حين أنه ترك الفتاة ذات الشعر الأحمر تفلت منه غير واثقٍ من لقاءٍ مستقبلي، في المرة القادمة إذا جمعتهما الصدفة سيتمسك بها. قلق ناتان لا من غياب الرغبة فقد كانت تلك هي المرة الأولى ولكن من نفوره المتزايد من أي نوع من الاحتكاك الحميمي مع الآخرين.ليس ذلك وحسب بل أصبح يبدي رفضاً لحركات والده العاطفية

المعتادة، فلم تعد مداعباته لشعره وملامساته لكتفيه ورقبته تملأن الفراغ وكأنها أصبحت حركاتٌ روتينية مجردةً من العواطف الحقيقية.

تقارع تلك الذكرى الزوال، فتطرق بابه مشرذمةً أكثر فأكثر، ذكرى الإحساس بالكمال والاكتفاء الذي منحه إياه ذاك المجهول على ضفاف النيل بصمتٍ وبأنامله الماهرة والطبيعية التي هزّته بشكلٍ خفي من الداخل. يؤلمه تناقض هذه الذكرى المتأججة.

تكرر أن خطر بباله أن يهيم على وجهه، حين يفرغ من الدروس، في شوارع إيسي كأنه يبحث أو ينتظر شيئاً ما فيجلس أحياناً على المقاعد في الدروب الهادئة متحاشياً حديقة رودان لئلا يلتقي بالآخرين.

في أحد الأيام، استقل المترو ولا يدري أين وجهته بالضبط، ثم نزل بعد ساعة ونصف في «سان مارتان إيتامب» لا لشيء إلا لأنها آخر الخط والأبعد عن إيسي هرباً منها، و آملاً أن يعثر فيها على مفاجآت كالحلم كأي مكانٍ آخر على وجه الأرض. إلا أنه فوجئ باللون الرمادي الذي يعانق هذه القرية الصغيرة بمنازلها الكئيبة، إن الأماكن تشبه نفسها لا بل هناك ما هو أسوء فقرر في طريق العودة اللامنتهي ألا يغادر إيسي أبداً إلا على بساطه الطائر بانعدام الجاذبية المسبب للدوار.

غابت تقاسيم وجه جمعة على جنح النسيان لكن النيل ظلٌ يرافقه في تسكعاته وفي المساء حين يخلد للنوم. أسف أنه لم يقدم له الفودكا عوضاً عن I.phone لقد فارقه دون أن تعلّقه الصور في ذاكرته، لم يعد يذكر سوى بشرته السمراء الملساء اللامعة ووجهه الباسم الدمث الذي جذبه كالمغناطيس وخاصة بالطريقة التي ملك فيها جسده ليدعكه وينظفه، طوفانٌ من الأسئلة يتبادر لذهن ناتان: لماذا هذا الانجذاب ثم هذا الهجران؟ ولماذا هذا الصبي بالذات بنفس العمر وعالمٍ مختلف وكأن من الطبيعي جداً أن يلتقيا؟ أي شعورٌ غريبٌ جمعه به،أفرغ شعورٌ بأنه.توأمه في قلبيهما فرحٌ هائل؟

قالت له جوستين بأن نجميهما قد التقيا لا محالة، لكنه لا يؤمن بهذه الأفكار، فالأمر أبسط من مجرد توافق سخيف للكواكب رغم الاضطراب الذي يكتنفه: سر لقائهما هو أن كلٌ منهما يمتلك ما ينقص الآخر في هذا العالم وهذا ما أدركاه للفور مما دفعهما للانضمام معاً. لم يعثر ناتان على تفسيرٍ أفضل. مهما كلفت فهي فرضية شيقة ولا يمكن التحقق منها وخاصة أنها لا تحل ولا تربط.

لم تعد لعبة «Serious Sam 3» تشدُه فقد منحته مصر ما هو أكثر أهمية من تلك المخلوقات الكبيرة المشؤومة. سعى جاهداً أن يلجأ لألعاب الفيديو هرباً من الكآبة التي تتملكه لكن واقعية الديكور في مصر جسَّد أمام عينيه-وبرقةٍ ما فقده نهائياً من حياته. قام أليكس بإعارته الألعاب الصادرة حديثاً مثل «Assassin's Creed» حيث أثارت القسطنطينية ملله أو «Call of Duty» بألعاب إطلاق النيران دون أي إبداع والتي لم تلق عنده حافزاً.

فرضت لعبة الوشاح نفسها مجدداً لتبدد بواحتها المشمسة اللون الرمادي لتشرين الثاني حيث بدأت شعلة النيل تخبو رويداً رويداً، لاذ إليها عدة مرات في اليوم الواحد فور عودته من المدرسة، وفي المساء بعد تناول العشاء. لف حول رقبته كنزة ليتحاشى الآثار الحمراء، إن الضغط يبقى نفسه لكنه لا يخلف آثاراً ملحوظة، مجرد احمرارٌ منتشر بالكاد يمكن تميزه.

تغيرت طبيعة الحلم الهندي فلم تعد هروباً من الواقع ليحيا لحظاتٍ قوية الإحساس ومبهرة وإنما ليستعيد شعوراً بالكمال قد تعرف عليه مسبقاً. بات يدرك تماماً الجانب الوهمي للصور والأحاسيس الزائلة التي يكتشفها معلقاً بالوشاح، ويدرك تماماً المخاطر التي يجازف بها بمضاعفة المحاولات حتى ولو تحقق بدقة من قائمة الفحوصات بالإضافة لما قد يلحق بنفسه من أمراض أو حتى يودي بنفسه إلى

التهلكة، ولكن لن يمنعه شيء من ذكرى تلك الشمس التي تقتحم كبدة ليله الذي يزداد ظلمة.

تذكر خرافة لم يعد يذكر أين قرأها تقول «أننا نموت حين نجد نصفنا الآخر» طالما حكم عليها بالجنون ولكنها ترافقه الآن كظلٍ ممتعٍ ألفه بالإضافة لفكرةٍ كما يقولها العرب أو المصريون: مكتوب.

ذاك اليوم، في الساعة الحادية عشرة والنصف بعد أن دخل والده ولويز إلى غرفتهما، أطلق الجولة الثالثة لحلمه الهندي. فصل I.phone الجديد وضبط المنبه الرجاج بعد ثلاثين دقيقة. لفَّ الكنزة حول رقبته وبدأ بدورانه السريع جاثياً على ألبوم «النجمة الغريبة» ثم أبعده ونهض فجأة ليقع كالعادة على ركبتيه أمام هالة تمثال «خيويس» المصنوع من الجبصين المصقول كالمرآة حيث تنعكس صورة سماء لازوردية مثل صورة الهرم الأزرق، ولدى اقترابه انعكست صورته متغيرة جداً فهو في المرآة الطفل ذو الست سنوات عارياً، حليق الشعر تاركاً خصلة طويلة على الجانب يلف بشدة حول رقبته، ارتمى في نهرٍ من النور الفتان مستسلماً لتدفقاته حتى حطَّ به في جزيرة سان جيرمان المحاطة بأعشاب طويلة، على تلك الضفة أومأ إليه صبيٌ يشبهه كثيراً إن لم يكن هو نفسه بعمره الآن وكأن مجرى النهر هو مجرى الأيام. الآخر كان هو نفسه، ببشرته ناصعة البياض وطوق التويجات الحمراء حول رقبته إلا أنه منفصلٌ عنه. ارتجفت يده سعادةً حين حاول لمس صدره ليتأكد أنها انعكاس صورته في المرآة، فانفجر الآخر ضاحكاً وكذلك فعل هو، ثم أمسك الآخر بيده ضاحكاً ليغسلها ويداعبها بعذوبةٍ يلامس أصابعه اثنتان اثنتان ويدغدغ راحة كفه. اشتد الارتجاف وغرق الآخر بموجاتٍ ضحك تعلو أكثر فأكثر. ثم استرخى يراوده هناء العيش وأسبل جفنيه، حاول أن يستيقظ ولكن تلاشى الارتجاف رويداً رويداً واختفى الآخر ثم اختفت الشمس والسماء اللازوردية وتبدد النور الفتّان في كبد نورٍ معاكس يتراوح في صمت غرفة طفولته وظلالها إنها غرفته في

«سافيني» لقد كانت والدته، كانت تهمس له كما مضى «حان وقت النوم». تحولت الغرفة لفضاءٍ لطيفٍ مغلقٍ، فضاءٍ فاترٍ وسائلٍ لا نور يخترقه ولا أوكسجين، أخيراً، أذنت له بعد كل هذا الزمن بالولوج إليه، تتملكه سعادةٌ عارمةٌ بهذا الهمس الحنون الذي صار هدهده نوم تحمله أخيراً على جنح الليل...

الذي يعجُ بأحلام ولدتها صور فرنسا في جوال الغريب، عثر عليها صدفة حين لمس صورة زهرةٍ على الشاشة، إن هذه الصور له الآن أعطاه إياها الغريب مع الجوال. باتت أحلامه بفرنسا تتجسد ليل نهار في برج إيفل وكل ما تبثه التلفزيونات من صور، ليس هذا وحسب بل في صور هذه العائلة وهؤلاء الأصدقاء، صورٌ لا ينفك يشاهدها مأسوراً بالغنى الفاحش الذي يشرئب عبر آلاف التفاصيل الصغيرة.

تجسدت أمامه صورة فرنسا بتلك الفتاة الشابة الشقراء العارية التي تتكرر صورها دائماً فتارة يحضنها ناتا وتارة يقبلها بنهديها العاريين المكورين وتارة تسرح شعرها الطويل الأشقر. كان جمعة يحلم بفتاةٍ مثلها فلن يكون مرغماً على الزواج بها ولا أن يقدم لها الطعام واللباس، سيضاجعها دون أن تسوطه ألسنة الآخرين.سيتركها ليجمع ثروة ويعود إليها من جديد .

لولا تلك الصور لباع جمعة الجهاز. أخبره رجب صديقه الوحيد الذي كشف له سره بأن هذا الجهاز يساوي 500 ليرة أي ما يعادل ثلاثة أشهر من جمع علب الكرتون ويبدأ يحصي له ما يمكن أن يهدي لنفسه بثمن هذا الجهاز، بيد أن جمعة قرر أن يحتفظ به ما دام لديه ما يأكل، فهو بالنسبة إليه كنزٌ يغرقه بعالمٍ خلاّب يلوذ إليه كلما اشتاق. سيتمكن من شحن الجهاز مساءً عند أنور مصلح الموبايلات.

ستحمي هذه الصور ذكرى لقاءه نباتا من الزوال، ستمنع شطحة

الخيال تلك من التآكل مع الواقع، تلك اللحظات الاستثنائية حين لمس بإصبعه العالم الذي يحلم أن يطأه بأعجوبةٍ ما . لامسه بحميميةٍ أثملته لا بل أثارته. لحظاتٌ تمسكه من أن يهوي في غياهب اليأس، يدعه فيها كل ما حوله عدا تلك المصطبة الجزيرة في أعلى دار السلام، المنسية طويلاً بين السماء والأرض، أما هناك أسفل دار السلام بل في أرجاء مصر خصوصاً في ساحة التحرير، عاد الرجال ذوي الزي الأسود وكأن دم الشهداء ودم ياسين قد ذهب هباءً بل كأنهم يدهسون ذكراهم. تغير المجرمون في أسفل دار السلام، اختفى الضابط وأعوانه لتحل محلهم نفس الهيئة المرعبة باحتقارٍ معلنٍ للآخرين ووابلٍ من الشتائم يمطرون بها أطفال الشوارع، إيماءاتٌ تهدد بعودة عالم الإجرام، وعودٌ برجوع الظلم قريباً .

ساد في الحي اعتقادٌ بأن الثورة قد تمت، وحتى لدى الناس الأكثر بؤساً من يصادفهم مساءً في قهوة أيمن، وأن ملك اللصوص قد زُج في السجن وسيفرض الشعب سيادته عبر الانتخابات.

شهد مطلع تشرين الثاني معرض صورٍ علّقت آلاف الإعلانات والرايات، صور مرشحي الانتخابات البرجوازيين بربطات عنق أو صور ورعٍ نزيهٍ محبٍ للعدل بذقونٍ وندبةٍ على الجبين.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا يتقنون القراءة والكتابة مثل رجب، فكلٌ يضع الصورة التي تمثل حزبه، فيكتفون بأن يعرفوا أن الرجل مع جهاز الهاتف ليبرالي و حامل المظلة شيوعي، ومع المدفعية سلفي أما مع الصاروخ فهو من جماعة الإخوان المسلمين. صدّق البعض أن هذه الصور الورعة تطلب من المارة التصويت لهم للانتقال إلى عالمٍ جديدٍ من الديمقراطية، بيد أن كثرة هذه الوجوه والصور لا تعني شيئاً لأبناء الشوارع والجائعين والمعرضين للابتزاز ولا للمغتصبين والمعذبين، إلا إذا أعد مرشحون المنبهات والدراجات والتلفزيونات العدّة ليحلوا محل اللصوص القدماء.

بين هذه الوجوه التي نراها للمرة الأولى الملصقة على جدران دار السلام تطلُ صور شهداء الحي التي سكنت الجدران منذ زمن، تلك الصور التي نعرفها حق المعرفة ويستحيل العبور بقربها دون أن تعلو الغصةُ في قلوبنا.

صورة محمد عبد اللال الذي طالما صادفه جمعة، ذاك الشاب ذو العينين الخضراويين اللتين يسحرن الفتيات، يضع رأسه على يده بكآبة. وصور هدير عبد السليمان، الفتاة الباسمة بخمارٍ أحمر اللون. كذلك صورة الصغير محمد أبو غنيمة الذي يَغفو وجهه على صورة الكعبة الشريفة، وصور للكثير ممن صادفهم جمعة يوماً ما، أولئك الذين استنشقوا نفس الهواء في نفس الأزقة المزدحمة.

كان ينقص هذه الصور، صورة ياسين، كان بحوزة حسان صورة ياسين الشهيد يبتسم مرتدياً كنزته التي حين نادته الشهادة كان يرتديها، لكن كان يلزمه 400 ليرة ليتمكن من طباعة خمسين صورة ليلصقها على الجدران.

طالما خطر ببال جمعة أن يقوم بذلك إلا أنه ما أقدم على بيع الجهاز إلا عندما هددت صور اللصوص الجدد تغطية صور الشهداء رويداً رويداً كما لو أنهم يقدمون على كتابة صفحة جديدة تلغي ذكراهم، عندها فقط توجه جمعة إلى أحد بائعي المسروقات الذي يعرفه رجب وباعه جهاز ناتا كما هو متوقع بـ 500 ليرة وطويت القضية بسرعة بعد أن نسخ الصور على CD ثم وافقت المطبعة أن تطبع كافة الصور الموجودة وبنفس السعر من أجل الشهيد، فوضع جمعة صوره المفضلة في ألبوم صور وخبأه في إحدى المقاعد المثقوبة في سيارة 504. في إحدى المرات أخرجه ليشاهد الصور، كان الآذان للصلاة يتردد في الأصقاع فتمنى في سره أن يجمعه الله مجدداً بصديقه ناتا ليتعرف على أصدقائه وعائلته ويضاجع تلك الفتاة الشقراء.

الصق حسان و رجب برفقة جمعة صور ياسين في الشوارع التي مرَّ بها ذات يومٍ بطنبور الريش النتن وكتبوا على الصورة:

«الشهيد ياسين، جامع الريش/ 26 كانون الثاني».

تطلُّ صورته واسعة الكرم من بين الابتسامات المحنطة للمرشحين على المكاوي والأقلام والنظارات لتقدم لكل من يعرفه خيرٌ من غدٍ غناء بل وميض نورٍ يفلتُ من جنته.

سرت الضجة في شوارع دار السلام في أحد أيام السبت من تشرين الثاني، فقد أخلت شرطة مكافحة الشغب ميدان التحرير بعنفٍ ولم تسمح لجرحى الثورة وعائلات الشهداء بالتخييم احتجاجاً على عدم محاكمة المجرمين.

أدركت مصر أخيراً أن الجنرالات في السلطة ليسوا على عجلةٍ من أمرهم وأن بعض المصريين الذين ما قذفتهم الثورة بحممها قد أضجرتهم الفوضى وحرمتهم الإضرابات من السياح. بيد أن شبان «الفيس بوك» الذين ما انقض عليهم الجوع يوماً وآباء الشهداء والبؤساء العالقين في شباك الجوع فما شهدوا التغيير المرتقب وكأن لهم موعدٌ جديد مساءً في ميدان التحرير ودُقت طبول الحرب مرة أخرى، جوبهوا بالقنابل المسيلة للدموع رمى بها رجال الشرطة وسددوا الرصاص المطاطي نحو العينين، فزف المساء أحد الشهداء بطلقةٍ حقيقية وأعورٍ لا بل العشرات.

أدرك كل سكان دار السلام لا بل أصبح على يقين بأن حكم الاستبداد عائدٌ لا محالة، سيختبئون من جديد ويتحاشون الشجار مهما كلف فهم يعلمون أنهم قد يصبحوا عرضةً للابتزاز تحت أي ذريعةٍ فيتم توقيفهم وتعريضهم للصعق بالكهرباء والاغتصاب ثم القتل والرمي في الحاوية أو تمزيقهم إرباً.

هذه هي فرص الموت التي يلاقيها شباب دار السلام دون بصيص أملٍ يتمسكون به للإفلات منها، حتى مشجعي الأهلي أولئك المشجعين

الغاضبين شديدي التنظيم يؤلف بينهم إحساسٌ متدفق من البؤس لمواجهة الشرطة مع كل نهاية مباراة بعد أن يعدُّوا خططاً تجنب ومحاصرة وهجوم يخشاها الرجال ذوي الزي الأسود. يعبر بعضهم الشوارع ضمن عصابات تختلق الشجار وكثيراً ما يتشاجرون مع رجال الشرطة حتى قرب حصنهم في وزارة الداخلية في شارع «محمد محمود» المؤدي إلى ميدان التحرير، قلعة العفاريت تلك حيث يفيض القبو بالجثث الغارقة ببرك الدم. لم يكن بحوزة مشجعي الأهلي سوى الحجارة ومزيجٍ من المولوتوف وكرههم الشديد لأولئك الرجال المدججين المنيعين الذين لا يمنعهم شيء من الضرب بالمطارق حتى الموت وحتى من إطلاق نيرانٍ حقيقية. تكمن قوة أولئك الشباب أن ليس لديهم ما يخسروه قبل أن يزجوا بأنفسهم في معركةٍ ضد هؤلاء الخنازير ليلقنوهم دروساً بشجاعة الرجال ثم فلتخترق رصاصةٌ صميم القلوب وتحملهم إلى الجنة مباشرةً.

ليسوا وحدهم في هذه المعركة، انضم إليهم كل رعاع الحي الذين لا يعتقدون بعقيدةٍ واحدة لكن داعبهم الحلم بحيٍ أفضل يعيشون فيه، أولئك الذين يهبون أنفسهم لأعمالٍ رخيصة مقابل صحن فول في الأيام ذات الحظ الجيد، أولئك الذين فقدوا إخوتهم وأصدقاءهم وشهدوا احتضار أحبائهم جرّاء قلة العناية، من لم يعرفوا سبيلاً إلى التعليم في المدرسة، كل من لم يسرق أبداً ولم يقتل أبداً، أولئك الذين يتضرعون هباءً ليل نهار للواحد القهار بأن يضع حداً لعذابهم.

حملت هذه الموجة الهائجة كلاً من رجب وجمعة لينضموا للمحاربين منزوعي السلاح والذين غمروا محطات المترو وغاروا في القطارات التي اكتظت بالناس و بشبان «الفيس بوك» والبرجوازيين الصغار الذين فزعوا من رؤيتهم يتدفقون كالطوفان مع كل مؤمنٍ بالنصر يؤم ميدان التحرير.

تقتصر طلباتهم على إغلاق محاكم الجنرالات وإطلاق سراح 12 ألف

بريء تم توقيفهم وتعذيبهم وإلغاء حالة الطوارئ ويرحلوا، ليلتئم ألقُ الثورة مع مجد الانتخابات، عشرات الآلاف في الميدان يلوحون بصور الشهداء ويطالبون برحيل «المشيرين» القدامى، ما زال الأملُ الجميل يداعبهم واشتعلت خطاباتهم بالنصر إلى أن طغت رائحةٌ جهنمية، رائحة غازٍ سام حملتها الرياح من شارع محمد محمود.

يا للمفاجأة! لم يكن غازاً يدفع إلى البكاء بل يمزق الرئتين لتصبح أمامه أصماً وأعمى وخائر القوى. انحسر الحشد المرعوب نحو النيل هرباً من الغيمة التي تدنو رويداً رويداً.

أصدرت خدمة «الفيس بوك» أوامراً بأن يمسك تلاميذ إحدى المدارس بأيدي بعضهم البعض ليفسحوا المجال لسيارات الإسعاف، وانتشرت المشافي الميدانية هنا وهناك في الميدان لإسعاف المختنقين على فراش الموت، الذين اصطحبهم مشجعو الفرق على موتورات، دفعة واحدة متراصين ما بين السائق والعابر.

منذ اليوم الأول، انخرط جمعة ورجب وكثيرون مثلهم مع مشجعي الأهلي والزمالك الذين اتفقوا لأول مرة، في الجبهة الأمامية على بعد بضعة أمتارٍ من الميدان حيث تمسك المسالمون بمواقعهم أمام وزارة الموت التي تَحميها أربعة صفوفٍ من رجال الشرطة يرتدون زي القتلة.

جمع موعدٌ واحدٌ أهالي البلاق والدفرور ومنشية ناصر وكل الأحياء الأخرى المفقودة، كل أولئك صفر اليدين، من لا قيود لهم، أولئك الأحياء - الأموات.

وزّع بعض كرماء النفس أقنعةً ليحتمي الحشد من الغيمة السامة وطَلَوا وجوههم بمزيجٍ من الخميرة والحليب من المفترض أن يقي من التسمم فبدوا كالأشباحِ شاحبي الوجوه معلنين موتهم سلفاً.

خطط مشجعو الفرق للهجوم ونظموا الضربات وقذفوا خليطاً من المولوتوف والمدخنة، تراجع المقاتلون حين انقضّ رهط الرجال ذوي الزي

الأسود بخراطيش الغاز والرصاص المطاطي المسدد نحو الرؤوس ثم تراجعوا بدورهم أمام وابلٍ من الحجارة.

أفرغت الدراجات النارية الصينية، حالاً وقبل الهجمة الثانية، الجرحى ذوي العيون الدامية الذين يقارعون الموت بالغاز بعد أن سقطوا على الأرض تعتريهم اختلاجاتٌ قبل أن يسكتوا تماماً ويسلموا الروح لبارئها.

رابط كلٌ من جمعة ورجب لخمسة أيامٍ وخمس ليالي، بعد أن حصل جمعة على قناعٍ واقي من أحد رجال الشرطة الذي قتل بضربة رأس، فقط ليبرهنوا للرجال ذوي الزي الأسود أن هناك آخرون غير كبوش الفداء يحل محلهم آخرون لدى هبوط الليل، فيخلد رجب وجمعة للنوم لساعتين أو ثلاث على المرج أمام الموغاما، ويقدم لهم شبان «الفيس بوك» أو الإخوان ما يسد الرمق.

في اليوم الثالث، سقط رجب فاقداً الوعي مختنقاً بالغاز، فضمه جمعة على الدراجة النارية التي حملته إلى الميدان. استعاد وعيه إلا أنه بقي تحت مراقبة الطلاب الشباب بالرداء الأبيض، حيث ما زال مريضاً تسري النار في عينيه وجلده ورئتيه وتعتريه اختلاجات ويصاب بالإقياء، تركه جمعة واستعاد مكانه في الجبهة.

استعاد رجب عافيته في اليوم الخامس مع بزوغ الفجر مع أنه بقي يترنح بعض الشيء. شاهد المرابطون في الميدان رافعة الجيش آتية من بعيد. خلال ساعة على الأقل، شيد العسكريون جداراً من الإسمنت والآجر لإغلاق شارع محمد محمود وعزله عن الساحة.

بقي جمعة ورجب عدة ساعات أيضاً في الميدان رغم أن الحرب قد وضعت أوزارها.

قيل في الإذاعة أن أربعين شهيداً قد أضيفوا لقائمة الشهداء خلال الخمسة أيامٍ الماضية، لقي أغلبهم حتفه مختنقاً بالغاز وبعضهم

بالرصاص.قيل أيضاً أن الانتخابات ستجري خلال ثلاثة أيام فكانت تلك الحرب عديمة الجدوى وقد سجلت على الأقل ألفي جريح من بينهم عشرات العور.أكد أحد الجنرالات أنهم همجيون وآخر قال بأنهم يستحقون الرمي في محارق هيتلر.

تقدم أحد الفتية الذي قاتل طويلاً حتى خلّف العراك أدرانه على ثيابه، خلع كنزته وتقنع بها ثم كتب على أحد الجدران التي تكاد تنهار حروفاً سوداء كبيراً، إنها المرة الأولى التي يأسف جمعة أنه عاجزٌ عن فك رموز الكلمات، فطلب عون أحد الرجال الذي يرتدي «جلابية» وبدا هارباً من إحدى القرى البعيدة.كتب الصبي ذو القناع على الجدار: «لا تصوتوا، لن يفي أحد بوعوده. لن يصغي أحدٌ إليكم. لا أحد يقول الحقيقة».

عادِ جمعة ذاك اليوم إلى دار السلام وهو يفكر بأن ابتسامة ياسين هي الحقيقة الوحيدة التي تجوب الشوارع. حقيقة السماء التي لا تكذب أبداً لأنها بعيدةٌ عن البشر.

لاذ رجب وجمعة إلى مخدعهم بين الركام وغرقوا بالنوم لعشر ساعات متواصلة. في الصباح، بدا رجب بوضعٍ سيء، مصابٌ بالدوار ولا يتمكن من الوقوف ويداه مرتجفتان. قال أنه ما زال يستنشق ذاك الغاز من حوله وفي كل مكان، رغب بالرحيل بعيداً من هنا.

بقي بحوزتهم بضع ليراتٍ سيذهبون إلى أبعد مكانٍ ممكن إلى البحر إلى الإسكندرية. بالنسبة لهما كانت الإسكندرية هي الطرف الآخر للعالم ففي نزههم البعيدة جداً ما عبروا قط شبرا شمال القاهرة. ذهب بصحبتهم حسان وياسين بآخر صورةٍ له معلقةٍ على الجدار. اتكأ رجب على جمعة وحسان حتى وصلوا المترو، نزلوا عند محطة مبارك التي صار اسمها محطة الشهداء، محطة رمسيس. لم يكن المال الذي بحوزتهم يكفي لدفع ثمن البطاقات، فجلسوا على الأرض في آخر المقطورة أمام باب المراحيض، فالتزم المراقب الصمت. أمل جمعة أن يكتشف قرى الدلتا الخلابة مع تين

فرعون الضخمة وأسراب الطيور المهاجرة والفلاحين الذين يزرعون أراضيهم الخصبة ولا يحتاجون لشيء.

لكن مصر، خلف الزجاج، بدت منظراً يتكرر حتى الأزل، نفس المشهد الذي تعيد آلاف التفاصيل ذكرى الأحياء المهملة في القاهرة حيث الرجال والنساء عالقين في دروبٍ بين قريتين بائستين، والغسيل في قنوات ماء نتنة، مدنٍ بأزقةٍ تحل محلّ الحاويات ولكن أين يلعب أفواج الأطفال بملابسهم الرثة والذين فتحوا أعينهم عليها.

نزلوا في محطة سيدي جابر وهي المحطة قبل الأخيرة، شعر رجب بالتحسن مع هواء البحر العليل. سيدي جابر حيٌ راقٍ يفضي إلى البحر، حيث تضيء الشمس المائلة للمغيب والنسمات العليلة شفافية هواءٍ نقيٍ لا غبار فيه، مشهداً ما رأوه في حياتهم. على ضفاف مصر تبدو الإسكندرية مخضبةً بالعالم الآخر؟ عند مفرق أحد الشوارع خلف الكورنيش الذي تعبره آلاف السيارات يلوح الفراغ مترامي الأطراف. لعلهم يموتون ألف مرة قبل عبور هذا الاوتستراد وخاصة برفقة رجب متثاقل الخطى. قفزوا من فوق الحاجز ليجلسوا على الصخور بين الصيادين، فتلقي مياه البحر بأمواجها اللطيفة على أقدامهم.

نشر جمعة صورة ياسين وابتسم للأفق. تلوح من بعيد بواخر ضخمة يجوب فيها البحارون الأحرار المحيطات. عبق المكان برائحة البحر والسمك فاستنشق جمعة بقرب ياسين ريح السعادة والحرية.

خلف الأفق البعيد، فرنسا بلد «ناتا» حسب قول حسان. «ناتا» الذي لن ينساه أبداً. تمدد رجب وحسان على الصخور وأغلقوا أعينهم في وجه الشمس.

أما جمعة فعلّق ناظريه في الأفق نحو البلد البعيد يداعبه حلم السفر لعالمٍ أفضل حيث تنتظره الغربة.

حالمون

حالمون ....ليست رواية عادية هي دفقٌ من أحاسيس جياشة ومشاعر متأججة تتوارى خلف كلماتٍ تأسرنا بانسيابيتها وترابطها الساحرين.

كلماتٌ تسكن في جملٍ منمقة تخدم الأحداث لكنها تبحرُ في فيضٍ من الذكريات يرتجف الفؤاد لصداها.

ترى هل تتحدث هذه الرواية عن الثورة الرقمية في شارع الدفاع في باريس بالتوازي مع الثورة المصرية؟ أم عن أعباء المراهقة وسياط اليتم؟ أم عن الواقع الرتيب الذي «يلتهم بمجراه الملل أحلى الذكريات»؟

إنها روايةٌ مؤثرة وجميلة، تقوم على أساسٍ شكلي شديد الوضوح، مشهدٌ مزدوج يعبر خلاله آلان بللوتيير من مشهدٍ لآخر بجملةٍ هي «المفصل» حيث يبدأ المشهد الأول في باريس وينتهي في القاهرة ويعود بالعكس.

أبطالنا مراهقان يتيمان: ناتان يعيش في باريس وجمعة في القاهرة. لا تربط بينهما أية علاقة إلا أنهما متقاربان «كأنه صورته في المرآة» فكلاهما يسعى للهرب من عدوانية الواقع، يغرق ناتان في ألعاب الفيديو ولعبة «الوشاح» أو «الحلم الهندي» حيث يخنق نفسه حد الإغماء، أما جمعة فيحلم بـ «الرحيل» والسفر إلى فرنسا.

الأول ابن رجلٍ غني مدلل تحيطه مانون الجميلة بحبها أما الثاني فابن شوارع، لا يتقن القراءة ولا الكتابة يعيش من بيع «علب الكرتون» ويشارك في الثورة المصرية المعاصرة ويحلم بفاطمة أخت عزيز.

يعلق ناتان نفسه بقضيبٍ في خزانة الثياب ليخنق نفسه «بلعبة الوشاح» في حين يرى جمعة نفسه معلقاً عند «الرجال ذوي الزي الأسود» لتعذيبه.

يتحاشى ناتان تحرش صديقه الشاب - الوسيم - في حين يبحث جمعة عن جثمان صديقه المفقود بين شهداء مظاهرات ساحة التحرير.

لا تتصارع هاتين القصتين بل هما قدران مسكينان ومأساويان تحت الشمس.

يتقن الكاتب العزف على الكلمات ليشدنا بعذوبة اللحن.





9 789933 509224

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع